من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية

شرح قول النبي ﷺ: «دعوة أخي ذي النون:

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ...»

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

المتوفى سنة ٧٢٨ هـ

طبعة منقحة ومخرجة الأحاديث

خرج أحاديثه

سعد عبد الغفار علي

الدار الأثرية للنشر والتوزيع

دار أضواء السلف المصرية للنشر والتوزيع

دار الإخلاص والصواب

شرح قول النبي ﷺ: «دعوة أخي ذي النون:

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ...»

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٣هـ/ ٢٠١٢م

الدار الأثرية
للنشر والتوزيع

مدينة نصر ـ القاهرة ـ جمهورية مصر العربية

جوال: ٠٠٢٠١٧٦٠٤٠٢٠٨

dar-elatharia@yahoo.fr - dar_elatharia١@hotmail.com

دار الإخلاص والصواب

تعاونية حركات محمد ـ حي جمال ـ وهران ـ الجزائر

هاتف وفاكس: ٠٤١٤٥٣٨٨٣ / جوال: ٠٧٧١٤٧٥٧٧٦ / ٠٥٥٢١٣٠٧٤١

tawhid_sena@yahoo.fr / tawhid_sena٢٠٠٦@hotmail.com

دار أضواء السلف
المصرية

جمهورية مصر العربية – القاهرة

هاتف: ٠٠٢٠١٠١٠٠١١٤٥ - ٠٠٢٠١٢٢٨٦٨٤١٠ - ٠٠٢٠١٠٥٨٦٦٢٠١

ADWAASALAF2007@YAHOO.COM

EMAIL: ADWAASALAF2007@HOTMAIL.COM

ADWAASALAF2007@GMAIL.COM

من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية

شرح قول النبي ﷺ: «دعوة أخي ذي النون:

لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين ...»

لشيخ الإسلام

أحمد بن عبد الحليم بن تيمية

المتوفى سنة ٧٢٨هـ

طبعة منقحة ومخرجة الأحاديث

خرج أحاديثه

سعد عبد الغفار علي

دار الإخلاص والصواب

دار أضواء السلف للنشر والتوزيع

الدار الأثرية للنشر والتوزيع

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ (١)

سُئِلَ شَيخُ الإسلَامِ ابنُ تيمية -قَدَّسَ الله رُوحَهُ- عَن قَولِ النَّبِيِّ ﷺ: «دَعوَةُ أَخِي ذِي النُّونِ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٧]، مَا دَعَا بِهَا مَكرُوبٌ إِلَّا فَرَّجَ الله كُربَتَهُ»(٢).

ما معنى هذه الدعوة؟ وَلِـمَ كانت كاشفةً للكرب؟ وهل لها شروطٌ باطنةٌ عند النطق بلفظها؟ وكيف مطابقة اعتقاد القلب لمعناها؛ حتى يوجب كشف ضره؟ وما مناسبة ذكره: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ مع أن التوحيد يوجب كشف الضر؟ وهل يكفيه اعترافُه، أم لابد من التوبة والعزم في المستقبل؟ وما هو السر في أن كشف الضر وزواله يكون عند انقطاع الرجاء عن الخلق والتعلق بهم؟ وما الحيلة في انصراف القلب عن الرجاء للمخلوقين والتعلق بهم بالكلية وتعلقه بالله تعالى ورجائه وانصرافه إليه بالكلية، وما السبب المعين على ذلك؟

فأجاب: الحمد لله رب العالمين.

لفظ: «الدعاء والدعوة» في القرآن يتناول معنيين:

- دعاءَ العبادة.

- ودعاءَ المسألة.

قال الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ﴾ [الشعراء:٢١٣]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون:١١٧]. وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ۘ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ [القصص:٨٨]. وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]. وقال:

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٣٧-٣٣٦).

(٢) سيأتي تخريجه قريبًا.

﴿ إِن يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ إِنَـٰثًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَـٰنًا مَّرِيدًا ﴾ [النساء:١١٧].

وقال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ﴾ [الرعد:١٤]. وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨]. وقال في آخر السورة: ﴿ قُلْ مَا يَعْبَؤُا۟ بِكُمْ رَبِّى لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ ﴾ [الفرقان:٧٧].

قيل: لولا دعاؤكم إياه.

وقيل: لولا دعاؤه إياكم.

فإن المصدر يضاف إلى الفاعل تارةً وإلى المفعول تارةً، ولكن إضافته إلى الفاعل أقوى ؛ لأنه لا بد له من فاعلٍ؛ فلهذا كان هذا أقوى القولين.

أي: ما يعبأ بكم لولا أنكم تدعونه فتعبدونه وتسألونه: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًۢا﴾ أي: عذابٌ لازمٌ للمكذبين.

ولفظ: «الصلاة» في اللغة: أصله الدعاء، وسُميت الصلاة دعاءً لتضمنها معنى الدعاء، وهو العبادة والمسألة.

وقد فُسر قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ بالوجهين:

قيل: اعبدوني وامتثلوا أمري؛ أستجب لكم.

كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الشورى:٢٦]؛ أي: يستجيب لهم.

وهو معروفٌ في اللغة؛ يُقال: استجابه، واستجاب له.

كما قال الشاعر:

وداعٍ دعـا يـا مَـن يُجيبُ إلى النَّدىٰ ... فلَـم يَـستجبْـهُ عـنـدَ ذاكَ مُجيبُ

وقيل: سَلُوني أعطكم.

وفي الصحيحين عن النبيﷺ أنه قال: «ينزل ربُّنا كلَّ ليلةٍ إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثُلثُ الليلِ الآخِر؛ فيقول: مَن يدعوني فأستجيبَ له، مَن يسألُني فأعطيَهُ، مَن يستغفرني فأغفرَ لهُ»(١).

فذكر أولًا لفظ الدعاء، ثم ذكر السؤال والاستغفار.

والمستغفرُ سائلٌ كما أن السائلَ دَاعٍ ؛ لكن ذكَر السَّائل لدفع الشر بعد السائل الطَّالب للخير، وذكرهما جميعًا بعد ذكر الدَّاعي الذي يتناولهما وغيرهما، فهو من باب عطف الخاص على العام.

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]. وكلُّ سائلٍ راغبٌ راهبٌ، فهو عابدٌ للمسئول، وكلُّ عابدٍ له فهو أيضًا راغبٌ وراهبٌ، يرجو رحمتَهُ ويخافُ عذابَهُ، فكلُّ عابدٍ سائلٌ، وكلُّ سائلٍ عابدٌ.

فأحد الاسمين يتناول الآخر عند تجرده عنه، ولكن إذا جمع بينهما: فإنه يُرادُ بالسائل: الذي يطلب جَلبَ المنفعَة ودَفع المضرَّة بصيغ السؤال والطلب.

ويُراد بالعَابد: مَن يطلبُ ذلك بامتثال الأمر، وإن لـم يكن في ذلك صيغ سؤالٍ، والعابدُ الذي يريد وجهَ الله والنظرَ إليه هو أيضًا رَاجٍ خائفٌ راغبٌ راهبٌ: يرغب في حصول مراده ويرهب من فواته.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ [الأنبياء:٩٠]. وقال تعالى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة:١٦]. ولا يُتصوَّر أن يخلوَ دَاعٍ لله -دعاء عبادةٍ أو دعاء مسألةٍ- من الرَّغَب والرَّهَب، من الخوف والطمع.

وما يُذكر عن بعض الشيوخ أنه جعل الخوفَ والرجاءَ من مقامات العامة، فهذا

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١١٤٥)، ومسلم (٧٥٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

قد يُفسر مراده بأن المقربين يريدون وجهَ الله فيقصدون التلذذ بالنظر إليه، وإن لم يكن هناك مخلوقٌ يتلذذون به، وهؤلاء يرجون حصول هذا المطلوب ويخافون حرمانه، فلم يخلوا عن الخوف والرجاء، لكن مرجوهم ومخوفهم بحسب مطلوبهم.

ومن قال من هؤلاء: لم أعبُدْك شوقًا إلى جنتكَ، ولا خَوفًا من نارك!!؛ فهو يظن أن الجنة اسمٌ لما يتمتعُ فيه بالمخلُوقات، والنار اسمٌ لما لا عذاب فيه إلا ألم المخلوقات، وهذا قصورٌ وتقصيرٌ منهم عن فَهم مُسمَّى الجنة؛ بل كلُّ ما أعدَّه الله لأوليائه فهو من الجنة، والنظر إليه هو من الجنة؛ ولهذا كان أفضلُ الخلق يسأل الله الجنة ويستعيذُ به من النار.

ولما سأل بعضُ أصحابه عما يقولُ في صلاته: «قال: إني أسأل الله الجنة، وأعوذ بالله من النار، أما إني لا أُحسنُ دَندنتَك ولا دندنةَ مُعاذٍ. فقال: حولها ندندن»[1].

وقد أنكر على من قال هذا الكلام -يعني: أسألُك لذَّة النظر إلى وجهك- فريقٌ من أهل الكلام ظنوا أن الله لا يُتلذَّذ بالنظر إليه، وأنه لا نعيم إلا بمخلوق!!

فغلطَ هؤلاء في معنى الجنة كما غلط أولئك؛ لكن أولئك طلبوا ما يستحق أن يُطلب وهؤلاء أنكروا ذلك.

وأما التألُّمُ بالنار فهو أمرٌ ضروري، ومَن قال: «لو أدخلَني النارَ لكنتُ راضيًا»؛ فهو عزمٌ منه على الرضا.

والعزائمُ قد تنفسخُ عند وجود الحقائق، ومثلُ هذا يقعُ في كلام طائفةٍ مثل سمنون الذي قال:

ولـيسَ لـي فِـي سِـواكَ حـظٌّ ... فكـيفَما شِـئتَ فامتَحِنِّـي

---

(١) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (٧٩٢)، وأحمد (١٥٤٦٨) عن بعض أصحاب النبي ﷺ، وأخرجه ابن ماجه (٩١٠، ٣٨٤٧) من حديث أبي هريرة ﷺ، وصححه الألباني في تخريج الكلم الطيب (١٠٤)، وقال محققو مسند الإمام أحمد: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

فابتُلي بعُسر البول، فجعل يطوفُ على صبيان المكاتب ويقول: ادعوا لعمِّكم الكذاب.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران:١٤٣].

وبعض من تكلم في علل المقامَات جعل الحبَّ والرضا والخوفَ والرجاء من مقامات العامَّة بناءً على مُشاهدة القدر، وأن من شهد القدر فشهد توحيد الأفعال حتى فني مَن لـم يكن، وبقي مَن لـم يزل؛ يخرج عن هذه الأمور.

وهذا كلامٌ مستدركٌ حقيقةً وشرعًا:

أما الحقيقة: فإن الحيَّ لا يُتصور ألاَّ يكونَ حسَّاسًا محبًّا لما يُلائمُه مُبغضًا لما يُنافره.

ومن قال: إن الحيَّ يستوي عنده جميع المقدُورات فهو أحدُ رجلين: إما أنه لا يتصور ما يقول؛ بل هو جاهلٌ، وإما أنه مكابرٌ معاندٌ.

ولو قُدر أن الإنسان حصل له حالٌ أزال عقله - سواءٌ سُمي اصطلامًا، أو محوًا، أو فناءً، أو غَشيًا، أو ضعفًا - فهذا لـم يسقط إحساس نفسه بالكلية؛ بل له إحساسٌ بما يلائمه وما ينافره، وإن سقط إحساسُه ببعض الأشياء، فإنه لم يسقط بجميعها.

فمن زعم أن المشاهد لتوحيد الربوبية يدخل إلى مقام الجمع والفناء فلا يشهد فرقًا؛ فإنه غالط؛ بل لابد من الفرق فإنه أمرٌ ضروري.

لكن إذا خرج عن الفرق الشرعي بقي في الفرق الطبعي، فيبقى متبعًا لهواه لا مطيعًا لمولاه.

ولهذا لما وقعت هذه المسألة بين الجنيد وأصحابه ذكر لهم الفرق الثاني، وهو: أن يفرق بين المأمور والمحظور، وبين ما يحبه الله وما يكرهه مع شهوده للمقدَّر الجامع، فيشهد الفرق في القدر الجامع، ومن لـم يفرق بين المأمور والمحظور خرج عن دين الإسلام.

وهؤلاء الذين يتكلمون في الجمع لا يخرجون عن الفرق الشَّرعي بالكلية، وإن خرجوا عنه كانوا كفارًا من شر الكفار، وهم الذين يخرجون إلى التسوية بين الرسل وغيرهم، ثم يخرجون إلى القول بوحدة الوجود؛ فلا يفرقون بين الخالق والمخلوق؛ ولكن ليس كل هؤلاء ينتهون إلى هذا الإلحاد؛ بل يفرقون من وجهٍ دون وجهٍ، فيطيعون الله ورسوله تارةً، ويعصون الله ورسوله تارةً، كالعصاة من أهل القبلة.

وهذه الأمور مبسوطةٌ في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن لفظ «الدعوة والدعاء» يتناول هذا وهذا.

قال الله تعالى: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [يونس:١٠].

وفي الحديث: «أفضلُ الذِّكر: لا إله إلا الله، وأفضلُ الدعاء: الحمد لله»(١) رواه ابن ماجه وابن أبي الدنيا.

وقال النبي ﷺ في الحديث الذي رواه الترمذي وغيره: «دَعوةُ أخي ذي النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، مَا دعا بها مكروبٌ إلا فرَّجَ الله كُربته»(٢).

---

(١) حديث حسن: أخرجه الترمذي (٣٣٨٣)، وابن ماجه (٣٨٠٠)، وابن حبان في صحيحه (٨٤٦) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم، وقد روى علي بن المديني وغير واحد عن موسى بن إبراهيم هذا الحديث» اهـ.

وموسى بن إبراهيم بن كثير بن الفاكه، صدوق يخطئ، كما في التقريب (ص٤٥٩).

وحسَّن الحديث الألبانيُّ في السلسلة الصحيحة (١٤٩٧)، وحسَّنه محقق صحيح ابن حبان.

(٢) حديث صحيح: أخرجه الترمذي (٣٥٠٥)، وأحمد (١٤٦٥) والنسائي في الكبرى (١٠٤٩٢)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٨٤)، وأبو يعلى في مسنده (٧٧٢) من طريق يونس بن أبي إسحاق، عن إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن جده سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ولفظه: «دعوة ذي النون إذ دعا وهو في بطن الحوت: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾؛ فإنه لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له».

=

سماها «دعوةً»؛ لأنها تتضمن نوعَي الدعاء.

فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ اعترافٌ بتوحيد الإلهية، وتوحيد الإلهية يتضمنُ أحد نوعَي الدعاء، فإن «الإله» هو المستحق لأن يُدعى دعاءَ عبادةٍ ودعاء مسألةٍ، وهو الله لا إله إلا هو.

وقوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ اعترافٌ بالذنب، وهو يتضمنُ طلب المغفرة، فإن الطالبَ السائل تارةً يسألُ بصيغة الطلب، وتارةً يسأل بصيغة الخبر: إما بوصف حاله، وإما بوصف حال المسئول، وإما بوصف الحالين.

كقول نوحٍ عليه السلام: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]. فهذا ليس صيغة طلبٍ، وإنما هو إخبارٌ عن الله أنه إن لـم يغفر له ويرحمه خسر، ولكن هذا الخبر يتضمن سؤالَ المغفرة.

وكذلك قولُ آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]. هو من هذا الباب.

ومن ذلك قول موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]. فإن هذا وصفٌ لحاله بأنه فقيرٌ إلى ما أنزل الله إليه من الخير، وهو متضمنٌ لسؤال الله إنزالَ الخير إليه.

=

قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٢٤٤): «رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، ورجال أحمد وأبي يعلى وأحد إسنادي البزار رجال الصحيح، غير إبراهيم بن محمد بن سعد وهو ثقة» اهـ

وأخرجه النسائي في الكبرى (١٠٤٩١)، والحاكم في المستدرك (١/ ٦٨٥) من طريق محمد بن مهاجر، عن إبراهيم بن محمد بن سعد، عن أبيه، عن جده، ولفظه: «ألا أخبركم بشيء: إذا نزل برجل منكم كرب أو بلاء من بلايا الدنيا دعا به يُفرج عنه؟ فقيل له: بلى. فقال: دعوة ذي النون: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين».

وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٧٤٤).

وقد روى الترمذي وغيره عن النبي ﷺ أنه قال: «مَن شغلَه قراءةُ القُرآن عَن ذكري ومسألَتي أعطيتُه أفضلَ مَا أُعطي السَّائلينَ»(١). رواه الترمذي، وقال: حديثٌ حسنٌ.

ورواه مالك بن الحويرث، وقال: «مَن شغلَه ذكري عَن مَسألتي أعطيتُه أفضلَ ما أُعطي السَّائلين»(٢). وأظن البيهقي رواهُ مرفوعًا بهذا اللفظ.

وقد سُئل سُفيان بن عيينة عن قوله: «أفضل الدعاء يوم عرفة لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيءٍ قديرٌ»(٣).

---

(١) حديث ضعيف: أخرجه الترمذي (٢٩٢٦)، والدارمي (٣٣٥٦) من طريق محمد بن الحسن الهمداني، عن عمرو بن قيس، عن عطية بن سعد العوفي، عن أبي سعيد الخدري ﷺ، ولفظ الترمذي: «من شغله القرآن وذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطي السائلين ...»، ولفظ الدارمي: «من شغله قراءة القرآن عن مسألتي وذكري، أعطيته أفضل ثواب السائلين ...».

وقال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب».

قلت: فيه محمد بن الحسن الهمداني، وهو ضعيف، كما في التقريب (ص٤٧٤).

وعطية العوفي، صدوق يخطئ كثيرًا، كان شيعيًّا مدلسًا، كما في التقريب (ص٣٩٣).

وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (١٣٣٥)، وانظر تمام تخريجه هناك.

(٢) انظر التخريج السابق.

(٣) حديث حسن بشواهده: أخرجه الطبراني في الدعاء (٨٧٤) من حديث علي بن أبي طالب ﷺ، وفي إسناده: قيس بن الربيع الأسدي الكوفي وهو ضعيف سيئ الحفظ. انظر: تهذيب الكمال (٢٤/ ٢٥-٣٧).

وأوله: «أفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي عشية عرفة ...».

وله شاهد أخرجه مالك في الموطأ (٤٩٨)، وعبد الرزاق في المصنف (٤/ ٣٧٨)، والبيهقي في السنن الكبرى (٤/ ٢٨٤) عن طلحة بن عبيد الله بن كُريز - مرسلًا.

ولفظه: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له».

قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٤/ ٧٧): «وهذا إسناد مرسل صحيح». ثم ذكر عدة طرق أخرى للحديث، ثم قال: «وجملة القول: أن الحديث ثابت بمجموع هذه الشواهد، والله أعلم». اهـ انظر: السلسلة الصحيحة (١٥٠٣).

فذكر هذا الحديث، وأنشدَ قولَ أُمية بن أبي الصَّلت يمدحُ ابنَ جُدعَانَ:

أأذكُـرُ حَاجَتِـي أم قَـد كَفَانِـي ... حَـيَاؤك إن شِـيمتَكَ الْحَـيَاءُ

إذَا أثنَـىٰ علَـيكَ الْمَـرءُ يَـومًا ... كَفَـاهُ مِـن تَعرُّضـهِ الثَّـنَاءُ

قال: فهذا مخلوقٌ يخاطب مخلوقًا، فكيف بالخالق تعالى؟!!

ومن هذا الباب: الدعاء المأثور عن موسى عليه السلام: «اللهم لك الحمدُ، وإليك المشتكى، وأنت المستعانُ، وبك المستغاثُ، وعليك التُّكلانُ». فهذا خبرٌ يتضمن السؤالَ.

ومن هذا الباب: قول أيوب عليه السلام: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرۡحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأنبياء:٨٣]. فوصف نفسه ووصف ربه بوصف يتضمن سؤالَ رحمته بكشف ضره، وهي صيغة خبرٍ تضمنت السؤال.

وهذا من باب «حسن الأدب في السؤال والدعاء». فقول القائل لمن يعظمه ويرغب إليه: أنا جائعٌ، أنا مريضٌ. حُسن أدبٍ في السؤال.

وإن كان في قوله: أطعمني، وداوني... ونحو ذلك، مما هو بصيغة الطلب طلبٌ جازمٌ من المسئول، فذاك فيه إظهار حاله وإخباره على وجه الذُّل والافتقار المتضمن لسؤال الحال، وهذا فيه الرغبة التامة والسؤال المحض بصيغة الطلب.

وهذه الصيغة -صيغة الطلب والاستدعاء- إذا كانت لمن يحتاج إليه الطالب أو ممن يقدر على قهر المطلوب منه ونحو ذلك، فإنها تقال على وجه الأمر: إما لما في ذلك من حاجة الطالب، وإما لما فيه من نفع المطلوب.

فأما إذا كانت من الفقير من كل وجهٍ للغني من كل وجهٍ فإنها سؤالٌ محضٌ بتذلل وافتقارٍ وإظهار الحال، ووصف الحاجة والافتقار، هو سؤالٌ بالحال، وهو أبلغ من جهة العلم والبيان، وذلك أظهر من جهة القصد والإرادة، فلهذا كان غالب الدعاء من القسم الثاني ؛ لأن الطالبَ السائل يتصور مقصودَه ومرادَه فيطلبه ويسأله، فهو سؤالٌ بالمطابقة والقصد الأول وتصريحٌ به باللفظ، وإن لـم يكن فيه وصفٌ لحال السائل

والمسئول فإن تضمن وصف حالهما كان أكمل من النوعين، فإنه يتضمن الخبر والعلم المقتضي للسؤال والإجابة؛ ويتضمن القصد والطلب الذي هو نفس السؤال، فيتضمن السؤال والمقتضي له والإجابة.

كقول النبي ﷺ لأبي بكر الصديق رضي الله عنه لما قال له: «علمني دعاءً أدعو به في صلاتي! فقال: قل: اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظُلمًا كثيرًا ولا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ فاغفر لي مغفرةً من عندكَ وارحمني، إنكَ أنتَ الغفور الرحيم». أخرجاه في الصحيحين.

فهذا فيه وصف العبد لحال نفسه المقتضي حاجته إلى المغفرة، وفيه وصف ربه الذي يوجب أنه لا يقدر على هذا المطلوب غيره، وفيه التصريح بسؤال العبد لمطلوبه، وفيه بيان المقتضي للإجابة، وهو وصف الرب بالمغفرة والرحمة، فهذا ونحوه أكمل أنواع الطلب.

وكثيرٌ من الأدعية يتضمن بعض ذلك؛ كقول موسى عليه السلام: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف:١٥٥]. فهذا طلبٌ ووصفٌ للمولى بما يقتضي الإجابة.

وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦]. فيه وصف حال النفس والطلب.

وقوله: ﴿إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص:٢٤]. فيه الوصف المتضمن للسؤال بالحال.

فهذه أنواعٌ لكل نوعٍ منها خاصةٌ.

يبقى أن يقال: فصاحب الحوت ومَن أشبهه لماذا ناسب حالهم صيغة الوصف والخبر دون صيغة الطلب؟

فيقال: لأن المقام مقام اعترافٍ بأن ما أصابني من الشر كان بذنبي، فأصلُ الشر هو الذنب، والمقصود دفع الضر، والاستغفار جاء بالقصد الثاني، فلم يذكر صيغة طلب كشف الضر لاستشعاره أنه مسيءٌ ظالـمٌ، وهو الذي أدخل الضر على نفسه؛ فناسب حالُه أن يذكر ما يرفع سببه من الاعتراف بظلمه، ولـم يذكر صيغة طلب المغفرة؛

لأنه مقصودٌ للعبد المكروب بالقصد الثاني ؛ بخلاف كشف الكرب فإنه مقصودٌ له في حال وجوده بالقصد الأول؛ إذ النَّفْسُ بطبعها تطلب ما هي محتاجةٌ إليه من زوال الضرر الحاصل من الحال قبل طلبها زوال ما تخاف وجوده من الضرر في المستقبل بالقصد الثاني، والمقصود الأول في هذا المقام هو المغفرة وطلب كشف الضر، لهذا مقدمٌ في قصده وإرادته، وأبلغ ما ينال به رفع سببه فجاء بما يحصل مقصوده.

وهذا يتبين بالكلام على قوله: ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ فإن هذا اللفظ يتضمن تعظيم الرب وتنزيهه، والمقام يقتضي تنزيهه عن الظلم والعقوبة بغير ذنبٍ، يقول: أنت مقدسٌ ومنزهٌ عن ظلمي وعقوبتي بغير ذنبٍ؛ بل أنا الظالم الذي ظلمت نفسي.

قال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [النحل:١١٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ [هود:١٠١]. وقال: ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الزخرف:٧٦]. وقال آدم عليه السلام: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف:٢٣].

وكذلك قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح الذي في مسلمٍ في دعاء الاستفتاح: «اللهم أنت الملكُ لا إلهَ إلا أنت، أنتَ ربي وأنا عبدُك، ظلمتُ نفسي واعترفت بذنبي، فاغفر لي ذنوبي جميعًا؛ فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ»(١).

وفي صحيح البخاري: «سيدُ الاستغفار أن يقولَ العبدُ: اللهم أنتَ ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعتُ، أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمَتك علي وأبوءُ بذَنبي فاغفِر لي؛ فإنه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنتَ، مَن قالها إذا أصبح مُوقنًا بها فمات من يومه دخَلَ الجنة، ومَن قَالها إذَا أمسَى مُوقنًا بها، فماتَ من ليلته دخَل الجنة»(٢).

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٦) من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه.

فالعبدُ عليه أن يعترفَ بعَدلِ الله وإحسانه، فإنه لا يظلمُ الناسَ شيئًا فلا يُعَاقب أحدًا إلا بذنبه وهو يحسن إليهم، فكل نقمةٍ منه عدلٌ، وكل نعمةٍ منه فضلٌ.

فقوله: «لا إله إلا أنت» فيه إثبات انفراده بالإلهية، والإلهية تتضمن كمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته، ففيها إثباتُ إحسانه إلى العباد، فإن «الإله» هو المألوه، والمألوه: هو الذي يستحق أن يُعبد، وكونُه يستحقُّ أن يُعبد هو بما اتصف به من الصفات التي تستلزم أن يكون هو المحبوب غاية الحبِّ، المخضوع له غاية الخضوع؛ والعبادة تتضمن غاية الحب بغاية الذل.

وقوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ يتضمَّن تعظيمَه وتنزيهَهُ عن الظُّلم وغيره من النقائص؛ فإن التسبيح -وإن كان يقال: يتضمن نفي النقائص- وقد رُوي في حديثٍ مرسلٍ من مراسيل موسى بن طلحة عن النبيﷺ في قول العبد: سبحان الله: «إنها براءة الله من السوء»[1].

فالنفي لا يكون مدحًا إلا إذا تضمن ثبوتًا، وإلا فالنفي المحضُ لا مدحَ فيه، ونفي السوءِ والنقص عنه يستلزمُ إثبات محاسنه وكماله ولله الأسماء الحسنى.

وهكذا عامة ما يأتي به القرآن في نفي السوء والنقص عنه يتضمن إثبات محاسنه وكماله.

---

(١) حديث ضعيف: أخرجه الطبري في تفسيره (٨/ ٣)، والطبراني في الدعاء (١٧٥٣) من طريق سفيان الثوري، عن عثمان بن عبد الله بن موهب، عن موسى بن طلحة - مرسلًا.

وهذا إسناد رجاله ثقات، ولكنه مرسل، والمرسل من أقسام الضعيف.

وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٦٨٠)، والطبراني في الدعاء (١٧٥١) من طريق عبد الرحمن بن حماد الطلحي، عن حفص بن سليمان، عن طلحة بن يحيى بن طلحة، عن أبيه، عن طلحة بن عبيد الله ﷺ ...به.

وإسناده ضعيف جدًّا، عبد الرحمن الطلحي، قال أبو حاتم: منكر الحديث، وقال ابن حبان وغيره: لا يحتج به. انظر: المجروحين (٢/ ٦٠)، ولسان الميزان (٣/ ٤١٢).

وحفص بن سليمان الأسدي القارئ، متروك الحديث مع إمامته في القراءة، كما في التقريب (ص١٧٢).

كقوله تعالى: ﴿ اللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ ﴾ [البقرة:٢٥٥].

فنفيُ أَخْذ السِّنَة والنوم له يتضمن كمالَ حياته وقيوميته.

وقوله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [قٓ:٣٨]. يتضمنُ كمالَ قُدرته، ونحو ذلك.

فالتسبيحُ المتضمن تنزيهَهُ عن السُّوء ونفي النقص عنه يتضمن تعظيمه.

ففي قوله: ﴿ سُبْحَٰنَكَ ﴾ تبرئتُهُ منَ الظلم وإثبات العظمة الموجبة له براءته من الظلم؛ فإن الظالـم إنما يظلم لحاجته إلى الظلم، أو لجهله، والله غنيٌّ عن كل شيءٍ، عليمٌ بكل شيءٍ، وهو غنيٌّ بنفسه، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه، وهذا كمال العظمة.

وأيضًا ففي هذا الدعاء التهليلُ والتَّسبيح:

فقوله: «لا إله إلا أنت» تهليلٌ.

وقوله: «سبحانك» تسبيحٌ.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيﷺ أنه قال: «**أفضلُ الكلامِ بعدَ القُرآن أربع؛ وهن منَ القرآن: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر**»(١).

والتحميدُ مقرونٌ بالتسبيح وتابعٌ له، والتكبير مقرونٌ بالتهليل وتابعٌ له، وفي الصحيح عن النبيﷺ أنه سئل: «أي الكلام أفضل؟ قال: **ما اصطفَى الله لملائكته: سُبحَانَ الله وبحَمدِهِ**»(٢).

وفي الصحيحين عن النبيﷺ أنه قال: «**كلمتَان خفيفتان على اللسَان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سُبحان الله وبحَمده، سُبحَان الله العَظيم**»(٣).

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢١٣٧)، وأحمد (١٩٧١١) واللفظ له من حديث سمرة بن جندب رضي الله عنه.
ولفظ مسلم: «أحب الكلام إلى الله أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر؛ لا يضرك بأيهن بدأت ...».

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٣١) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٤٠٦)، ومسلم (٢٦٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وفي القرآن: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ ﴾ [النصر:٣]. وقالت الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ ﴾ [البقرة:٣٠].

وهاتان الكلمتان إحداهما مقرونةٌ بالتحميد والأخرى بالتعظيم، فإنَّا قد ذكرنا أن التسبيح فيه نفيُ السوء والنقائص المتضمن إثبات المحاسن والكمال، والحمد إنما يكون على المحاسن.

وقَرَن بين الحمد والتعظيم كما قَرن بين الجلال والإكرام؛ إذ ليس كل معظَّمٍ محبوبًا محمودًا، ولا كل محبوبٍ محمودًا معظَّمًا، وقد تقدم أن العبادة تتضمنُ كمالَ الحب المتضمن معنى الحمد، وتتضمن كمال الذل المتضمن معنى التعظيم، ففي العبادة حبه وحمده على المحاسن، وفيها الذل له الناشئ عن عظمته وكبريائه.

ففيها إجلاله وإكرامه، وهو سبحانه المستحق للجلال والإكرام؛ فهو مستحق غاية الإجلال وغاية الإكرام.

ومن الناس من يحسب أن «الجلال» هو الصفات السلبية، و«الإكرام» الصفات الثبوتية، كما ذكر ذلك الرازي ونحوه.

والتحقيق: أن كليهما صفاتٌ ثبوتيةٌ، وإثباتُ الكمال يستلزمُ نفي النقائص، لكن ذكر نوعَي الثبوت وهو ما يستحق أن يُحب وما يستحق أن يُعظَّم؛ كقوله :﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴾ [لقمان:٢٦].

وقول سليمان عليه السلام: ﴿فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠]. وكذلك قوله: ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ [التغابن:١]. فإن كثيرًا ممن يكون له الملك والغنى لا يكون محمودًا؛ بل مذمومًا؛ إذ الحمدُ يتضمن الإخبار عن المحمود بمحاسنه المحبوبة، فيتضمن إخبارًا بمحاسن المحبوب محبةً له.

وكثيرٌ ممن له نصيبٌ من الحمد والمحبة يكون فيه عجزٌ وضعفٌ وذل ينافي العظمة والغنى والملك.

فالأول يُهاب ويُخاف ولا يُحب، وهذا يُحب ويُحمد ولا يُهاب ولا يُخاف، والكمال اجتماع الوصفين، كما ورد في الأثر: «إن المؤمنَ رُزق حلاوةً ومهابةً».

وفي نعت النبيﷺ: «كان من رآه بديهةً هابه، ومن خالطه معرفةً أحبه»[١].

فقَرَن التسبيحَ بالتحميد، وقَرَن التهليلَ بالتكبير؛ كما في كلمات الأذان.

ثم إن كلَّ واحدٍ من النوعين يتضمن الآخر إذا أُفرد: فإن التسبيحَ والتحميد يتضمن التعظيم؛ ويتضمنُ إثباتَ ما يُحمد عليه، وذلك يستلزم الإلهية، فإن الإلهية تتضمن كونَه محبوبًا؛ بل تتضمنُ أنه لا يستحقُّ كمالَ الحبِّ إلا هو.

والحمد: هو الإخبار عن المحمود بالصفات التي يستحق أن يحب، فالإلهية تتضمن كمال الحمد.

ولهذا كان «الحمد لله» مفتاح الخطاب؛ وكل أمرٍ ذي بالٍ لا يُبدأ فيه بالحمد لله فهو أجذم.

و«سبحان الله» فيها إثبات عظمته كما قدمناه؛ ولهذا قال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الحاقة:٥٢]. وقد قال النبيﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»[٢]. رواه أهل السنن.

---

(١) حديث ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٦٣٨)، وابن أبي شيبة في المصنف (٦/ ٣٢٨)، والبيهقي في شعب الإيمان (١٤١٥) من طريق عيسى بن يونس، عن عمر بن عبد الله مولى غُفْرة، عن إبراهيم بن محمد -من ولد علي بن أبي طالب ﷺ... به مطولًا.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن غريب، ليس إسناده بمتصل» اهـ

وفيه: عمر مولى غُفْرة، وهو ضعيف، كما في التقريب (ص٤١٤)، وضعفه الألباني في مختصر الشمائل (٥).

(٢) حديث ضعيف: أخرجه أبو داود (٨٦٩)، وابن ماجه (٨٨٧)، وأحمد (١٦٩٦١)، والدارمي (١٣٠٥) من طريق موسى بن أيوب، عن عمه إياس بن عامر، عن عقبة بن عامر ﷺ، وإياس بن عامر لم يرو عنه سوى ابن أخيه موسى بن أيوب، وقد ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل (٢/ ٢٨١)، ولم يذكر فيه جرحًا ولا تعديلًا، فهو مجهول الحال.

وضعف الحديث الألبانيُّ في إرواء الغليل (٣٣٤)، فانظر تمام تخريجه هناك.

وقال: «أما الركوع فعَظِّموا فيه الربَّ، وأما السُّجودُ فاجتهدوا فيه بالدعاء، فقمنٌ أن يُستجَاب لكُم»[١] رواه مسلمٌ.

فجعل التعظيم في الركوع أخصَّ منه بالسجود، والتسبيح يتضمن التعظيم.

ففي قوله: «سبحان الله وبحمده» إثبات تنزيهه وتعظيمه وإلهيته وحمده.

وأما قوله: «لا إله إلا الله، والله أكبر» ففي «لا إله إلا الله» إثبات محامده؛ فإنها كلها داخلةٌ في إثبات إلهيته.

وفي قوله: «الله أكبر» إثبات عظمته؛ فإن الكبرياء تتضمن العظمة، ولكن الكبرياء أكمل.

ولهذا جاءت الألفاظ المشروعة في الصلاة والأذان بقول: «الله أكبر» فإن ذلك أكمل من قول: «الله أعظم»؛ كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما عذبته»[٢].

فجعل العظمةَ كالإزار، والكبرياء كالرِّداء، ومعلومٌ أن الرِّداء أشرفُ، فلما كان التكبيرُ أبلغ منَ التعظيم صرَّح بلفظه، وتضمن ذلك التعظيم.

وفي قوله: «سبحان الله» صرَّح فيها بالتنزيه من السوء المتضمن للتعظيم؛ فصار كلٌّ من الكلمتين متضمنًا معنى الكلمتين الأُخرَيين إذا أُفردتا، وعند الاقتران تُعطى كلُّ كلمةٍ خاصيتهَا.

وهذا كما أن كلَّ اسمٍ من أسماء الله فإنه يستلزمُ معنى الآخر؛ فإنه يدلُّ على الذات، والذاتُ تستلزم معنى الاسم الآخر؛ لكن هذا باللزوم.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٩) من حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٦٢٠)، وأبو داود (٤٠٩٠) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظ مسلم: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذَّبته».

وأما دلالة كل اسمٍ على خاصيته وعلى الذات بمجموعهما فبالمطابقة، ودلالتها على أحدهما بالتضمن.

فقول الداعي: «**لا إله إلا أنت سبحانك**» يتضمن معنى الكلمات الأربع اللاتي هن أفضل الكلام بعد القرآن، وهذه الكلمات تتضمن معاني أسماء الله الحسنى وصفاته العليا، ففيها كمال المدح.

وقوله: «**إني كنت من الظالمين**» فيه اعترافٌ بحقيقة حاله، وليس لأحد من العباد أن يبرئ نفسه عن هذا الوصف؛ لاسيما في مقام مناجاته لربه.

وقد ثبت في الصحاح عن النبيﷺ أنه قال: «**لا ينبغي لعَبدٍ أن يقولَ أنا خيرٌ من يونسَ بنِ متَّى**»[1]. وقال: «**مَن قالَ: أنَا خيرٌ من يونسَ بن متَّى؛ فقَد كذَب**»[2].

فمن ظنَّ أنه خيرٌ من يونس بحيث يعلم أنه ليس عليه أن يعترف بظلم نفسه فهو كاذبٌ؛ ولهذا كان سادات الخلائق لا يفضلون أنفسهم على يونسَ في هذا المقام؛ بل يقولون كما قال أبوهم آدم وخاتمهم محمدٌ ﷺ.

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣٤١٦)، ومسلم (٢٣٧٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٤٦٠٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

فصـــل

وأما قول السائل: لِـمَ كانت موجبةً لكشف الضر؟

فذلك لأن الضر لا يكشفه إلا الله، كما قال تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾ [يونس:١٠٧]. والذنوب سببٌ للضر، والاستغفار يزيل أسبابه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]. فأخبر أنه سبحانه لا يعذب مستغفرًا.

وفي الحديث: «**مَن أكثر الاستغفارَ جعلَ الله له من كُل همٍّ فرجًا، ومن كُل ضيقٍ مخرجًا، ورزقه من حيثُ لا يحتسبُ**».

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

فقوله: «**إني كنت من الظالمين**» اعترافٌ بالذنب، وهو استغفارٌ، فإن هذا الاعتراف متضمنٌ طلب المغفرة.

وقوله: «**لا إله إلا أنت**» تحقيقٌ لتوحيد الإلهية، فإن الخير لا موجب له إلا مشيئة الله، فما شاء كان وما لـم يشأ لـم يكن، والمعوِّق له من العبد هو ذنوبه، وما كان خارجًا عن قدرة العبد فهو من الله وإن كانت أفعال العباد بقدر الله تعالى، لكن الله جعل فعل المأمور وترك المحظور سببًا للنجاة والسعادة؛ فشهادة التوحيد تفتح باب الخير، والاستغفار من الذنوب يغلق باب الشر.

ولهذا ينبغي للعبد ألا يعلِّقَ رجاءه إلا بالله، ولا يخافُ من الله أن يظلمه؛ فإن الله لا يظلم الناس شيئًا ولكن الناس أنفسهم يظلمون ؛ بل يخاف أن يجزيه بذنوبه، وهذا معنى ما رُوي عن علي ﷺ أنه قال: «لا يرجُونَّ عبدٌ إلا ربَّه، ولا يخافنَّ إلا ذنبَه».

وفي الحديث المرفوع إلى النبي ﷺ: «أنه دخلَ على مريضٍ، فقالَ: كيفَ تجدُك؟ فقال: أرجو الله وأخافُ ذنوبي. فقال: **ما اجتمعَا في قلب عبدٍ في مثل هذا الموطن إلا أعطاهُ الله ما يرجو وأمَّنه مما يخافُ**»(١).

فالرجاء ينبغي أن يتعلَّق بالله ولا يتعلَّق بمخلوق ولا بقوة العبد ولا عمله، فإن تعليقَ الرجاء بغير الله إشراكٌ، وإن كان الله قد جعل لها أسبابًا فالسبب لا يستقلُّ بنفسه، بل لابد له من معاونٍ، ولابد أن يمنع المعارض المعوِّق له، وهو لا يحصل ويبقى إلا بمشيئة الله تعالى.

ولهذا قيل: الالتفاتُ إلى الأسباب شركٌ في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقصٌ في العقل، والإعراضُ عن الأسباب بالكلية قدحٌ في الشرع.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَارْغَب﴾ [الشرح:٧-٨]. فأمر بأن تكون الرغبة إليه وحده، وقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة:٢٣]. فالقلب لا يتوكل إلا على من يرجوه فمَن رجَا قوَّتَه أو عملَهُ أو علمَهُ أو حالَهُ أو صديقَهُ أو قرابتَهُ أو شيخَهُ أو ملكَهُ أو مالَهُ غيرَ ناظرٍ إلى الله؛ كان فيه نوعُ توكُّلٍ على ذلك السبب.

وما رجا أحدٌ مخلوقًا أو توكلَ عليه إلا خابَ ظنُّه فيه؛ فإنه مشركٌ ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١].

وكذلك المشركُ يخافُ المخلوقين ويرجوهم فيحصل له رعبٌ، كما قال تعالى:

---

(١) حديث حسن: أخرجه الترمذي (٩٨٣)، والنسائي في السنن الكبرى (١٠٩٠١)، وابن ماجه (٤٢٦١) من طريق سيَّار بن حاتم، عن جعفر بن سليمان، عن ثابت، عن أنس بن مالك ﷺ ... به.

وسيَّار بن حاتم، صدوق له أوهام، كما في التقريب (ص٢٦١).

وجعفر بن سليمان، صدوق، كما في التقريب (ص١٤٠).

وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٥١).

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران:١٥١].

والخالصُ من الشرك يحصل له الأمنُ، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]. وقد فَسَّر النَّبي ﷺ الظلمَ هنا بالشِّرك.

ففي الصحيح عن ابن مسعود أن هذه الآية لما نزلَت شَقَّ ذلك على أصحاب النبي ﷺ وقالوا: «أيُّنا لم يظلم نفسَهُ؟ فقال النبي ﷺ: إنما هذا الشركُ، ألم تسمعوا إلى قول العَبد الصَّالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]»[(١)].

وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾ إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾ [البقرة:١٦٥-١٦٧].

وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٦-٥٧]. ولهذا يذكر الله الأسباب ويأمر بألَّا يُعتمدُ عليها، ولا يُرجى إلا الله.

قال تعالى لَـمَّا أنزل الملائكة: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران:١٢٦]. وقال: ﴿إِن يَنصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَنصُرُكُم مِّن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران:١٦٠].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٣٧)، ومسلم (١٢٤).

وقد قدمنا أن الدعاء نوعان: دعاء عبادةٍ ودعاء مسألةٍ، وكلاهما لا يصلح إلا لله، فمن جعل مع الله إلهًا آخر قعدَ مذمومًا مخذولًا، والراجي سائلٌ طالبٌ فلا يصلح أن يرجو إلا الله، ولا يسأل غيره.

ولهذا قال النبيﷺ في الحديث الصحيح: «**مَا أتاكَ مِن هذا المالِ وأنتَ غير سَائلٍ ولا مشرفٍ فخُذه، وما لا فلا تَتبعه نفسُك**»(١).

فالمشرفُ الذي يستشرف بقلبه، والسائل الذي يسأل بلسانه.

وفي الحديث الذي في الصحيحين عن أبي سعيدٍ الخدري: «قال: أصَابتنا فاقةٌ، فجئتُ رسول اللهﷺ لأسألَه، فوجدتُه يخطبُ الناسَ وهو يقول: **أيها الناسُ، والله مَهما يكُن عندنا من خَيرٍ فلن نَدَّخرَه عنكم، وإنه مَن يستغن يُغنه الله، ومَن يستعفف يعفَّه الله ومَن يتصبَّر يصبره الله، وما أُعطي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع منَ الصَّبر**»(٢).

و«**الاستغناءُ**»: ألا يرجو بقلبه أحدًا فيستشرف إليه، و«**الاستعفاف**»: ألا يسأل بلسانه أحدًا.

ولهذا لَـمَّا سُئل أحمد بن حنبلٍ عن التوكل، فقال: قطعُ الاستشراف إلى الخلق.

أي: لا يكونُ في قلبك أن أحدًا يأتيك بشيء.

فقيل له: فما الحجة في ذلك؟ فقال: قول الخليل لما قال له جبرائيل: هل لك من حاجةٍ ؟ فقال: «أما إليك فلا».

فهذا وما يُشبهه مما يبين أن العبد في طَلَب ما ينفَعُه ودفع ما يضره لا يوجه قلبه إلا

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٤٧٣)، ومسلم (١٠٤٥) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «إن ناسًا من الأنصار سألوا رسول اللهﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نَفِد ما عنده، فقال: ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم، ومن يستعفف يعفَّه الله، ومن يستغن يغنِه الله، ومن يتصبر يصبِّره الله، وما أُعطِي أحدٌ عطاءً خيرًا وأوسع من الصبر».

إلى الله؛ فلهذا قال المكروب: «لا إله إلا أنت».

ومثل هذا ما في الصحيحين عن ابن عباسٍ: أن النبيﷺ كان يقول عند الكرب: «لا إلهَ إلا الله العَظيمُ الحليمُ، لا إله إلا الله ربُّ العَرش العظيمُ، لا إله إلا الله ربُّ السموات وربُّ الأرض ربُّ العرش الكريمُ»(١).

فإن هذه الكلمات فيها تحقيق التوحيد، وتألُّه العبد ربَّه، وتعلُّق رجائه به وحده لا شريك له، وهي لفظ خبرٍ يتضمن الطلب.

والناس وإن كانوا يقولون بألسنتهم: لا إله إلا الله، فقول العبد لها مخلصًا من قلبه له حقيقةٌ أخرى، وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله.

قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٤٣-٤٤].

فمن جعل ما يألهه هو ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه؛ أي: جعل معبودَه هو ما يهواه، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه، فهم يتخذون أندادًا من دون الله يحبونهم كحب الله.

ولهذا قال الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ﴾ [الأنعام:٧٦]. فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع، ولكن كان أحدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعًا له: كالشمس والقمر والكواكب، والخليل بيَّن أن الآفلَ يغيبُ عن عابده، وتحجبه عنه الحواجب، فلا يرى عابدَه ولا يسمع كلامَه ولا يعلم حاله ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره؛ فأي وجهٍ لعبادة مَن يأفل؟!!

وكلما حقق العبد الإخلاص في قول: «لا إله إلا الله» خرج من قلبه تألُّه ما يهواه، وتُصرفُ عنه المعاصي والذنوب، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٤٥)، ومسلم (٢٧٣٠).

﴿إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]. فعلل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين، وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر:٤٢]. وقال الشيطان: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص :٨٢-٨٣].

وقد ثبت في الصحيح عن النبيﷺ أنه قال: «**مَن قالَ لا إله إلا الله مخلصًا من قَلبه حرَّمَهُ الله على النَّار**»(١).

فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار؛ فمن دخل النار من القائلين «لا إله إلا الله» لـم يحقق إخلاصها المحرِّمَ له على النار ؛ بل كان في قلبه نوعٌ من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار، والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل؛ ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاةٍ أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥].

والشيطانُ يأمرُ بالشِّرك والنفسُ تُطيعه في ذَلك، فلا تزالُ النفس تلتفتُ إلى غير الله؛ إما خوفًا منه، وإما رجاءً له، فلا يزالُ العبد مفتقرًا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك.

وفي الحديث الذي رواه ابنُ أبي عاصمٍ وغيره عن النبيﷺ أنه قال: «**يقولُ الشيطانُ: أهلكتُ الناسَ بالذنوبِ، وأهلكوني بـ: لا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيتُ ذلك بثثتُ فيهم الأهواءَ، فهم يذنبون ولا يستغفرون؛ لأنهم يحسبون أنهم يحسنون صُنعًا**»(٢).

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم (٣٢) من حديث معاذ بن جبل ﷺ، ولفظه: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله صدقًا من قلبه؛ إلا حرمه الله على النار».

وأخرجه أحمد (٢١٥٥٥)، ولفظه: «من شهد أن لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه أو يقينًا من قلبه لـم يدخل النار، أو: دخل الجنة، وقال مرة: دخل الجنة ولـم تمسَّه النار». وإسناده صحيح.

(٢) حديث ضعيف جدًّا: أخرجه أبو يعلى في مسنده (١٣٦)، حدثنا محرز بن عون: حدثنا عثمان بن مطر، حدثنا عبد الغفور، عن أبي نصيرة، عن أبي رجاء، عن أبي بكر الصديق ﷺ ... به.

ولفظه: «عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار، فأكثروا منهما، فإن إبليس قال: أهلكت الناس بالذنوب

فصاحب الهوى الذي اتبع هواه بغير هدًى من الله له نصيبٌ ممن اتخذ إلهه هواه؛ فصَار فيه شركٌ منعه من الاستغفار، وأما من حقَّق التوحيد والاستغفار فلا بد أن يرفع عنه الشر؛ فلهذا قال ذو النون: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾.

ولهذا يقرن الله بين التوحيد والاستغفار في غير موضعٍ: كقوله تعالى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]. وقوله: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ۝٢ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود:٢-٣]. وقوله: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ﴾ [هود:٥٠-٥٢]. وقوله: ﴿فَٱسْتَقِيمُوٓا۟ إِلَيْهِ وَٱسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦].

وخاتمة المجلس: «سُبحانَك اللهمَّ وبحمدكَ، أشهدُ أن لا إلهَ إلا أنتَ أستغفركَ وأتوبُ إليكَ»[1]. إن كان مجلسَ رحمةٍ كانت كالطابع عليه، وإن كان مجلسَ لغوٍ كانت كفارةً له.

=

فأهلكوني بـ: لا إله إلا الله والاستغفار، فلما رأيت ذلك أهلكتهم بالأهواء، وهو يحسبون أنهم مهتدون».

قال الهيثمي في المجمع (١٠/ ٣٤٦): «رواه أبو يعلى، وفيه عثمان بن مطر، وهو ضعيف» اهـ وكذلك عبد الغفور بن عبد العزيز، أبو الصباح الواسطي، قال أبو حاتم: ضعيف الحديث، وقال البخاري: تركوه، منكر الحديث، وقال ابن معين: ليس حديثه بشيء.

انظر: الجرح والتعديل (٦/ ٥٥)، والكامل في الضعفاء (٥/ ٣٢٩).

(١) حديث صحيح: أخرجه الترمذي (٣٤٣٣)، وأحمد (١٠٠٤٣)، والنسائي في الكبرى (١٠٢٣٠)، وابن حبان في صحيحه (٥٩٤٠) من حديث أبي هريرة ﷺ.

قال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، لا نعرفه من حديث سهيل إلا من هذا الوجه» اهـ

وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١٥١٦)، وقال محققو مسند الإمام أحمد: إسناده صحيح على شرط مسلم.

وقد رُوي أيضًا أنها تقال في آخر الوضوء، بعد أن يُقال: «**أشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شَريكَ له، وأشهدُ أن محمدًا عبدُه ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين**»[(١)]. وهذا الذكر يتضمن التوحيد والاستغفار؛ فإن صدره الشهادتان اللتان هما أصلا الدين وجماعه؛ فإن جميع الدين داخلٌ في «الشهادتين»؛ إذ مضمونها ألا نعبد إلا الله وأن نطيع رسوله.

والدين كله داخلٌ في هذا: في عبادة الله بطاعة الله وطاعة رسوله، وكل ما يجب أو يُستحب داخلٌ في طاعة الله ورسوله.

وقد روي أنه يقول: «**سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك**». وهذا كفارة المجلس، فقد شُرع في آخر المجلس وفي آخر الوضوء.

وكذلك كان النبيﷺ يختم الصلاة -كما في الحديث الصحيح- أنه كان يقول في آخر صلاته: «**اللهمَّ اغفر لي ما قدمتُ وما أخَّرتُ وما أسررتُ وما أعلنتُ، وما أنت أعلمُ به مني؛ أنتَ المقدِّمُ وأنتَ المؤخِّرُ لا إله إلا أنتَ**»[(٢)]. وهنا قدم الدعاء وختمه بالتوحيد ؛ لأن الدعاء مأمورٌ به في آخر الصلاة، وختم بالتوحيد ليختم الصلاة بأفضل الأمرين وهو التوحيد، بخلاف ما لم يُقصد فيه هذا، فإن تقديم التوحيد أفضل.

فإن جنس الدعاء الذي هو ثناءٌ وعبادةٌ أفضلُ من جنس الدعاء الذي هو سؤالٌ وطلبٌ، وإن كان المفضول قد يفضُل على الفاضل في موضعه الخاص بسبب وبأشياءَ أُخَرَ كما أن الصلاة أفضل من القراءة، والقراءة أفضل من الذكر الذي هو ثناءٌ، والذكر أفضل من الدعاء الذي هو سؤالٌ، ومع هذا فالمفضول له أمكنةٌ وأزمنةٌ وأحوالٌ يكون

---

(١) حديث صحيح: أخرجه الترمذي (٥٥) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، وانظر تمام تخريجه في إرواء الغليل (١/ ١٣٤)، وتمام المنة (ص٩٦-٩٧).

وأخرجه مسلم (٢٣٤)، ولفظه: «أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله». دون هذه الزيادة.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١) من حديث عليِّ بن أبي طالب ﷺ، مطولًا.

فيها أفضل من الفاضل.

لكن أول الدين وآخره وظاهره وباطنه هو التوحيد، وإخلاص الدين كله لله هو تحقيق قول: «لا إله إلا الله»؛ فإن المسلمين وإن اشتركوا في الإقرار بها فهم متفاضلون في تحقيقها تفاضلًا لا نقدر أن نضبطه، حتى أن كثيرًا منهم يظنون أن التوحيد المفروض هو الإقرار والتصديق بأن الله خالق كل شيءٍ وربُّه، ولا يميزون بين الإقرار بتوحيد الربوبية الذي أقرَّ به مشركو العرب، وبين توحيد الإلهية الذي دعاهم إليه رسول الله ﷺ، ولا يجمعون بين التوحيد القولي والعملي.

فإن المشركين ما كانوا يقولون: إن العالم خلقه اثنان، ولا إن مع الله ربًّا ينفردُ دونَه بخلق شيءٍ؛ بل كانوا كما قال الله عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان:٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]. وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩].

وكانوا مع إقرارهم بأن الله هو الخالق وحده يجعلون معه آلهةً أخرى يجعلونهم شفعاء لهم إليه، ويقولون: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، ويحبونهم كحب الله!!

والإشراكُ في الحب والعبادة والدعاء والسؤال غير الإشراك في الاعتقاد والإقرار، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]. فمن أحبَّ مخلوقًا كما يحب الخالقَ فهو مشركٌ به قد اتخذ من دون الله أندادًا يحبهم كحُب الله، وإن كان مقرًّا بأن الله خالقه.

ولهذا فَرَّق الله ورسولُه بين مَن أحبَّ مخلوقًا لله وبين مَن أحبَّ مخلوقًا مع الله فالأول يكون الله هو محبوبه ومعبوده الذي هو منتهى حبُّه وعبادته لا يحبُّ معه غيره.

لكنه لما علم أن الله يحبُّ أنبياءه وعبادَه الصالحين أحبَّهم لأجله، وكذلك لما علم أن الله يحبُّ فعل المأمور وترك المحظور أحبَّ ذلك، فكان حبُّه لما يحبه تابعًا لمحبة الله وفرعًا عليه وداخلًا فيه.

بخلاف مَن أحبَّ مع الله فجعله ندًّا لله يرجوه ويخافه، أو يطيعه من غير أن يعلم أن طاعته طاعةٌ لله، ويتخذه شفيعًا له من غير أن يعلم أن الله يأذن له أن يشفع فيه، قال تعالى: ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ [يونس:١٨]. وقال تعالى: ﴿ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [التوبة:٣١].

وقد قال عديُّ بن حَاتمٍ للنبيﷺ: «ما عبدُوهم. قال: **أحلُّوا لهمُ الحرامَ فأطاعُوهم، وحرَّموا عليهم الحلالَ فأطاعوهم، فكانت تلكَ عبادتهم إيَّاهم**»(١).

قال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ شَرَعُوا۟ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ ﴾ [الشورى:٢١]. وقال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴾ [الفرقان:٢٧-٢٩].

فالرسولُ وجبت طاعته ؛ لأنه مَن يُطع الرسول فقد أطاع الله، فالحلال ما حلَّله والحرام ما حرَّمه، والدينُ ما شرعه، ومَن سوى الرسول من العلماء والمشايخ والأمراء والملوك إنما تجب طاعتُهم إذا كانت طاعتُهم طاعةً لله، وهم إذا أمر الله ورسوله بطاعتهم فطاعتهم داخلةٌ في طاعة الرسول، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ

(١) حديث حسن: أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والبيهقي في السنن الكبرى (١٠/ ١١٦) من حديث عدي بن حاتم ﷺ، وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (٣٢٩٣).

﴿وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء:٥٩]. فلم يقل: وأطيعوا الرسول وأطيعوا أولي الأمر منكم؛ بل جعل طاعة أولي الأمر داخلةً في طاعة الرسول؛ وطاعةُ الرسول طاعةً لله، وأعاد الفعل في طاعة الرسول دون طاعة أولي الأمر؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله.

فليس لأحدٍ إذا أمره الرسولُ بأمر أن ينظر: هل أمر الله به أم لا؟

بخلاف أولي الأمر فإنهم قد يأمرون بمعصية الله، فليس كلُّ مَن أطاعهم مطيعًا لله، بل لا بد فيما يأمرون به أن يعلم أنه ليس معصيةً لله، وينظر: هل أمر الله به أم لا؟ سواءٌ كان أولي الأمر من العلماء أو الأمراء.

ويدخلُ في هذا تقليدُ العلماء وطاعة أمراء السَّرايا وغير ذلك، وبهذا يكون الدينُ كلُّه لله قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

وقال النبي ﷺ لَـمَّا قيل له: «يا رسول الله، الرجلُ يقاتل شجاعةً ويقاتل حميةً ويقاتل رياءً، فأيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال: **من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله**»(١).

ثم إن كثيرًا من الناس يحب خليفةً أو عالِـمًا أو شيخًا أو أميرًا؛ فيجعله ندًّا لله، وإن كان قد يقول: إنه يحبه لله.

فمن جعل غير الرسول تجب طاعته في كل ما يأمر به وينهى عنه، وإن خالف أمر الله ورسوله فقد جعله ندًّا، وربما صنع به كما تصنع النصارى بالمسيح، ويدعُوه ويستغيثُ به ويوالي أولياءه ويعادي أعداءه مع إيجابه طاعتَهُ في كل ما يأمر به وينهى عنه ويحلِّله ويُحرِّمه، ويقيمه مقام الله ورسوله؛ فهذا من الشرك الذي يدخل أصحابه في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٢٣)، ومسلم (١٩٠٤) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

فالتوحيد والإشراك يكون في أقوال القلب ويكون في أعمال القلب؛ ولهذا قال الجنيد: «التوحيد قول القلب والتوكل عمل القلب». أراد بذلك التوحيد الذي هو التصديق، فإنه لما قرنه بالتوكل جعله أصلَه، وإذا أُفرد لفظُ التوحيد فهو يتضمن قول القلب وعمله، والتوكل من تمام التوحيد.

وهذا كلفظ «الإيمان»؛ فإنه إذا أُفردَ دخلت فيه الأعمالُ الباطنة والظاهرة.

وقيل: الإيمان قولٌ وعملٌ؛ أي: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح.

ومنه قول النبي ﷺ في الحديث المتفق عليه: «**الإيمان بضعٌ وستون شعبةً؛ أعلاهَا قولُ لا إله إلا الله، وأدناهَا إماطةُ الأذى عَن الطَّريق، والحيَاء شُعبةٌ من الإيمان**»(١).

ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحجرات:١٥]. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤]. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ﴾ [النور:٦٢].

و«**الإيمانُ المطلَقُ**» يدخلُ فيه الإسلام، كما في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال لوفد عبد القيس: «**آمرُكم بالإيمان بالله، أتدرون ما الإيمانُ بالله؟ شهَادةُ أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأن تؤدُّوا خُمس مَا غنمتم**»(٢).

ولهذا قال من قال من السلف: كل مؤمنٍ مسلمٌ وليس كل مسلمٍ مؤمنًا.

وأما إذا قُرن لفظ الإيمان بالعمل أو بالإسلام فإنه يفرَّق بينهما؛ كما في قوله تعالى:

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥) واللفظ له، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٥٣)، ومسلم (١٧) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وهو في القرآن كثيرٌ.

وكما في قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح لما سأله جبريل عن الإسلام والإيمان والإحسان فقال: «**الإسلامُ: أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت. قال: فما الإيمان؟ قال: أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت، وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: فما الإحسان؟ قال: أن تعبدَ الله كأنَّك تراهُ، فإن لـم تكن تراه فإنه يراك**»[1].

ففرَّق في هذا النص بين الإسلام والإيمان لما قَرَن بين الاسمين، وفي ذلك النص أدخل الإسلام في الإيمان لما أفرده بالذِّكر.

وكذلك لفظ «العمل» فإن الإسلام المذكور هو من العمل، والعمل الظاهر هو موجب إيمان القلب ومقتضاه، فإذا حصل إيمان القلب حصل إيمان الجوارح ضرورةً، وإيمان القلب لابد فيه من تصديق القلب وانقياده، وإلا فلو صدق قلبه بأن محمدًا رسول الله وهو يبغضه ويحسده ويستكبر عن متابعته لم يكن قد آمن قلبُه.

و«**الإيمان**» وإن تضمَّن التصديقَ فليس هو مرادفًا له، **فلا يقال لكل مصدِّقٍ بشيء: إنه مؤمنٌ به.**

فلو قال: أنا أصدق بأن الواحدَ نصف الاثنين، وأن السماء فوقنا والأرض تحتنا ... ونحو ذلك مما يشاهده الناس ويعلمونه، لـم يقل لهذا: إنه مؤمنٌ بذلك؛ بل لا يُستعمل إلا فيمن أخبر بشيء من الأمور الغائبة، كقول إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف:١٧]. فإنهم أخبروه بما غاب عنه.

وهم يفرقون بين من آمن له وآمن به، فالأول يُقال للمُخبِر، والثاني يُقال للمخبَر به، كما قال إخوة يوسف: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾. وقال تعالى: ﴿فَمَآ ءَامَنَ لِمُوسَىٰٓ إِلَّا

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٨) من حديث عمر بن الخطاب ﷺ.

وأخرجه البخاري (٥٠)، ومسلم (٩) من حديث أبي هريرة ﷺ.

ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِۦ﴾ [يونس:٨٣]. وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١].

ففرَّق بين إيمانه بالله وإيمانه للمؤمنين؛ لأن المراد: يصدِّق المؤمنين إذا أخبروه، وأما إيمانه بالله فهو من باب الإقرار به.

ومنه قوله تعالى عن فرعون ومَلَئِه: ﴿أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا﴾ [المؤمنون:٤٨]؛ أي: نُقرُّ لهما ونصدقهما.

ومنه قوله: ﴿أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا۟ لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٧٥]. ومنه قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ﴾ [العنكبوت:٢٦].

ومن المعنى الآخر قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة:٣]. وقوله: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ [البقرة:٢٨٥]. وقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [البقرة:١٧٧]؛ أي: أقر بذلك. ومثل هذا في القرآن كثيرٌ.

والمقصود هنا: أن لفظ «الإيمان» إنما يُستعمل في بعض الأخبار، وهو مأخوذٌ من الأمن، كما أن الإقرار مأخوذٌ من «قرَّ» فالمؤمن صاحب أمنٍ، كما أن المقِرَّ صاحب إقرارٍ؛ فلا بد في ذلك من عمل القلب بموجب تصديقه، فإذا كان عالمًا بأن محمدًا رسول الله ولم يقترن بذلك حبُّه وتعظيمُه؛ بل كان يبغضه ويحسده ويستكبر عن اتباعه فإن هذا ليس بمؤمنٍ به؛ بل كافرٌ به.

ومن هذا الباب: كفرُ إبليس وفرعون وأهل الكتاب الذين يعرفونه كما يعرفون أبناءهم وغير هؤلاء، فإن إبليس لم يكذِّب خبرًا ولا مخبِرًا؛ بل استكبر عن أمر ربه.

وفرعون وقومه قال الله فيهم: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل:١٤].

وقال له موسى: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]. وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ﴾ [البقرة:١٤٦].

فمجردُ علم القلب بالحقِّ إن لـم يقترن به عملُ القلب بموجب علمه مثل محبة القلب له واتباع القلب له، لـم ينفع صاحبَه، بل أشدُّ الناس عذابًا يومَ القيامة عالـمٌ لـم ينفعه الله بعلمه.

وقد كان النبي ﷺ يقول: «**اللهم إني أعوذ بك من علمٍ لا ينفع ونفسٍ لا تشبع ودعاءٍ لا يسمع وقلبٍ لا يخشع**»[(١)].

ولكن الجهمية ظنوا أن مجرد علم القلب وتصديقه هو الإيمان، وأن مَن دلَّ الشرع على أنه ليس بمؤمن فإن ذلك يدل على عدم علم قلبه، وهذا من أعظم الجهل شرعًا وعقلًا، وحقيقته توجب التسوية بين المؤمن والكافر.

ولهذا أطلق وكيع بن الجراح وأحمد بن حنبلٍ وغيرهما من الأئمة كفرَهم بذلك؛ فإنه من المعلوم أن الإنسان يكون عالمًا بالحق ويبغضه لغرض آخر، فليس كل من كان مستكبرًا عن الحق يكون غير عالـمٍ به، وحينئذٍ فالإيمان لابد فيه من تصديق القلب وعمله.

وهذا معنى قول السلف: «الإيمان قولٌ وعملٌ».

ثم إنه إذا تحقق القلب بالتصديق والمحبة التامة المتضمنة للإرادة لزمَ وجود الأفعال الظاهرة، فإن الإرادة الجازمة إذا اقترنت بها القدرة التامة لزم وجود المراد قطعًا، وإنما

---

(١) **حديث صحيح**: أخرجه الترمذي (٣٤٨٢)، والنسائي (٥٤٤٢)، وأحمد (٦٥٢١) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

وأخرجه أبو داود (١٥٤٨)، والنسائي (٥٤٦٧)، وابن ماجه (٢٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وصححه الألباني في صحيح الجامع (٢١٧٧).

وأخرجه مسلم (٢٧٢٢) من حديث زيد بن أرقم رضي الله عنه ولفظه: «**اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن دعوة لا يستجاب لها**».

ينتفي وجود الفعل لعدم كمال القدرة أو لعدم كمال الإرادة، وإلا فمع كمالها يجب وجود الفعل الاختياري.

فإذا أقر القلب إقرارًا تامًّا بأن محمدًا رسول الله، وأحبه محبةً تامةً امتنع مع ذلك ألا يتكلم بالشهادتين مع قدرته على ذلك؛ لكن إن كان عاجزًا لخرس ونحوه، أو لخوف ونحوه؛ لم يكن قادرًا على النطق بهما.

و أبو طالبٍ -وإن كان عالمًا بأن محمدًا رسول الله وهو محب له- فلم تكن محبته له لمحبته لله؛ بل كان يحبه لأنه ابنُ أخيه فيحبه للقرابة، وإذا أحب ظهوره فلما يحصل له بذلك من الشرف والرئاسة، فأصل محبوبه هو الرئاسة؛ فلهذا لما عرض عليه الشهادتين عند الموت رأى أن بالإقرار بهما زوالَ دينه الذي يحبه، فكان دينه أحب إليه من ابن أخيه؛ فلم يقرَّ بهما.

فلو كان يحبُّه لأنه رسول الله كما كان يحبه أبو بكرٍ الذي قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾ [الليل:١٧-٢١]. وكما كان يحبه سائر المؤمنين به كعمر وعثمان وعلي وغيرهم؛ لنطق بالشهادتين قطعًا، فكان حبُّه حبًّا مع الله، لا حُبًّا لله، ولهذا لم يقبل الله ما فعله من نصر الرسول ومؤازرته؛ لأنه لم يعمله لله، والله لا يقبل من العمل إلا ما أُريد به وجهه، بخلاف الذي فعل ما فعل ابتغاء وجه ربه الأعلى.

وهذا مما يحقق أن «الإيمان والتوحيد» لابد فيهما من عمل القلب: كحب القلب، فلابد من إخلاص الدين لله، والدين لا يكون دينًا إلا بعمل؛ فإن الدين يتضمن الطاعة والعبادة.

وقد أنزل الله ﷻ سورتي الإخلاص: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، و: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ﴾.

إحداهما: في توحيد القول والعلم.

والثانية: في توحيد العمل والإرادة.

فقال في الأول: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [سورة الإخلاص] فأمره أن يقول هذا التوحيد.

وقال في الثاني: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [سورة الكافرون]. فأمره أن يقول ما يوجب البراءة من عبادة غير الله، وإخلاص العبادة لله.

والعبادة أصلها: القصد والإرادة.

والعبادة إذا أُفردت دخلَ فيها التوكل ونحوه، وإذا قُرنت بالتوكل صارَ التوكل قسيمًا لها؛ كما ذكرناه في لفظ الإيمان.

قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١].

فهذا ونحوه يدخل فيه فعل المأمورات وترك المحظورات؛ والتوكلُ من ذلك.

وقد قال في موضعٍ آخر: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٥]. وقال: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

ومثل هذا كثيرًا ما يجيء في القرآن: تتنوعُ دلالة اللفظ في عمومه وخصوصه بحسب الإفراد والاقتران؛ كلفظ «المعروف والمنكر» فإنه قد قال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران:١١٠]. وقال: ﴿وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [التوبة:٧١]. وقال: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف:١٥٧].

فالمنكرُ يدخُل فيه ما كرهَه الله ؛ كما يدخُل في المعروف ما يحبُّه الله.

وقد قال في موضع آخر: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]. فعطف المنكر على الفحشاء، ودخل في المنكر هنا البغي.

وقال في موضع آخر: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ [النحل:٩٠]. فقرن بالمنكر الفحشاء والبغي.

ومن هذا الباب لفظ «الفقراء والمساكين» إذا أُفرد أحدُهما دخلَ فيه الآخرُ، وإذا قُرن أحدهما بالآخر صار بينهما فرقٌ؛ لكن هناك أحد الاسمين أعم من الآخر، وهنا بينهما عمومٌ وخصوصٌ، فمحبة الله وحده، والتوكل عليه وحده، وخشية الله وحده، ونحو هذا؛ كل هذا يدخل في توحيد الله تعالى.

قال تعالى في المحبة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]. وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة:٢٤]. وقال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور:٥٢]. فجعل الطاعة لله والرسول وجعل الخشية والتقوى لله وحده وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا۟ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤْتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة:٥٩]. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَٱنصَبْ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرْغَب﴾ [الشرح:٧-٨]؛ فجعل التحسب والرغبة إلى الله وحده، وهذه الأمور مبسوطةٌ في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا أن قول القائل: «لا إله إلا أنت» فيه إفراد الإلهية لله وحده، وذلك يتضمن التصديق لله قولًا وعملًا، فالمشركون كانوا يقرُّون بأن الله رب كل شيء؛ لكن كانوا يجعلون معه آلهةً أخرى فلا يخصونه بالإلهية.

وتخصيصه بالإلهية يوجب ألا يُعبد إلا إياه، وألا يُسأل غيره، كما في قوله: ﴿إِيَّاكَ

نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ فإن الإنسان قد يقصدُ سؤالَ الله وحده والتوكل عليه، لكن في أمورٍ لا يحبها الله؛ بل يكرهُهَا وينهى عنها، فهذا وإن كان مخلصًا له في سؤاله والتوكل عليه لكن ليس هو مخلصًا في عبادته وطاعته، وهذا حال كثيرٍ من أهل التوجهات الفاسدة أصحاب الكشوفات والتصرفات المخالفة لأمر الله ورسوله، فإنهم يعانون على هذه الأمور.

وكثيرٌ منهم يستعين الله عليها؛ لكن لَـمَّا لـم تكن موافقةً لأمر الله ورسوله حصل لهم نصيبٌ من العاجلة وكانت عاقبتهم عاقبةً سيئةً، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء:٦٧]. وقال تعالى: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ﴾ [يونس:١٢].

وطائفةٌ أخرى قد يقصدون طاعة الله ورسوله، لكن لا يحققون التوكل عليه والاستعانة به، فهؤلاء يثابون على حسن نيتهم وعلى طاعتهم، لكنهم مخذولون فيما يقصدونه إذ لـم يحققوا الاستعانة بالله والتوكل عليه، ولهذا يبتلى الواحد من هؤلاء بالضعف والجزع تارةً، وبالإعجاب أخرى، فإن لـم يحصل مراده من الخير كان لضعفه، وربما حصل له جزعٌ، فإن حصل مراده نظر إلى نفسه وقوته، فحصل له إعجابٌ، وقد يُعجب بحاله فيظن حصول مراده فيخذل.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ ٱللَّهُ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [التوبة:٢٥-٢٧].

وكثيرًا ما يقرن الناسُ بين الرياءِ والعُجب، فالرياء من باب الإشراك بالخلق، والعجب من باب الإشراك بالنفس، وهذا حال المستكبر، فالمرائي لا يحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾. والمعجب لا يحقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.

فمن حقَّق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ خرج عن الرياء، ومن حقق قوله: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ خرج عن الإعجاب.

وفي الحديث المعروف: «ثلاثٌ مُهلكاتٌ: شُحٌّ مُطاعٌ، وهوًى متبعٌ، وإعجابُ المرءِ بنفسه»(١).

وشرٌّ من هؤلاء وهؤلاء: مَن لا تكون عبادته لله، ولا استعانته بالله؛ بل يعبد غيره، ويستعين غيره، وهؤلاء المشركون من الوجهين.

ومن هؤلاء من يكون شركه بالشياطين: كأصحاب الأحوال الشيطانية، فيفعلون ما تحبه الشياطين من الكذب والفجور، ويدعونه بأدعية تحبها الشياطين، ويعزمون بالعزائم التي تطيعها الشياطين مما فيها إشراكٌ بالله، كما قد بُسط الكلام عليهم في مواضع أُخَر.

وهؤلاء قد يحصلُ لهم من الخوارقِ ما يُظن أنه من كرامات الأولياء، وإنما هو من أحوال السحرة والكهان؛ ولهذا يجب الفرق بين الأحوالِ الإيمانية القرآنية، والأحوال النفسانية، والأحوال الشيطانية.

وأما القسم الرابع: فهم أهل التوحيد الذين أخلصوا دينهم لله، فلم يعبدوا إلا إياه، ولم يتوكلوا إلا عليه.

وقولُ المكروب: «لا إله إلا أنت» قد يستحضر في ذلك أحد النوعين دون الآخر،

---

(١) حديث حسن: أخرجه الطبراني في الأوسط (٥٤٥٢)، والبيهقي في شعب الإيمان (٧٤٥)، وأبو نعيم في الحلية (٢/ ٣٤٣) من حديث أنس ﷺ.

وأخرجه الطبراني في الأوسط (٥٧٥٤) من حديث ابن عمر ﷺ.

وأخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٧٢٥٢) من حديث أبي هريرة ﷺ.

وقد ورد عن غيرهم من الصحابة ﷺ، وأسانيده لا يسلم شيء منها من مقال، وهو حسن بمجموعها. وانظر تمام تخريجه في السلسلة الصحيحة (١٨٠٢).

فمن أتمَّ الله عليه النعمة استحضر التوحيد في النوعين، فإن المكروب همته منصرفةٌ إلى دفع ضُره وجلب نفعه.

فقد يقول: «لا إله إلا الله» مُستشعرًا أنه لا يكشف الضر غيرك، ولا يأتي بالنعمة إلا أنت، فهذا مستحضرٌ توحيد الربوبية ومستحضرٌ توحيد السؤال والطلب والتوكل عليه، معرضٌ عن توحيد الإلهية الذي يحبه الله ويرضاه ويأمر به، وهو: ألا يعبد إلا إياه، ولا يعبده إلا بطاعته وطاعة رسوله، فمن استشعر هذا في قوله: «لا إله إلا أنت»؛ كان عابدًا لله متوكلًا عليه، وكان ممتثلًا قوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣]. وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠]. وقوله: ﴿وَٱذْكُرِ ٱسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل:٨-٩].

ثم إن كان مطلوبه محرمًا أثم وإن قضيت حاجته.

وإن كان طالبًا مباحًا لغير قصد الاستعانة به على طاعة الله وعبادته لم يكن آثمًا ولا مثابًا.

وإن كان طالبًا ما يعينه على طاعة الله وعبادته لقصد الاستعانة به على ذلك كان مثابًا مأجورًا.

وهذا مما يفرق به بين العبد الرسول وخلفائه، وبين النبي الملك، فإن نبينا محمدًا ﷺ خُيِّر بين أن يكون نبيًّا ملكًا أو عبدًا رسولًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا، فإن العبد الرسول هو الذي لا يفعل إلا ما أُمر به ففعله كله عبادةٌ لله، فهو عبدٌ محضٌ مُنفذٌ أمر مُرسِله.

كما ثبت عنه في صحيح البخاري أنه قال: «إني والله لا أُعطي أحدًا ولا أمنع أحدًا، وإنما أنا قاسمٌ أضع حيثُ أُمرتُ»[1].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٣١١٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «ما أعطيكم، ولا أمنعكم، إنما أنا قاسم، أضع حيث أُمرت».

وهو لـم يرد بقوله: «لا أُعطي أحَدًا ولا أمنعُ» إفراد الله بذلك قَدَرًا وكونًا، فإن جميع المخلوقين يشاركونه في هذا، فلا يُعطي أحدًا ولا يمنع إلا بقضاء الله وقدره؛ وإنما أراد إفراد الله بذلك شرعًا ودينًا؛ أي: لا أعطي إلا مَن أُمرت بإعطائه، ولا أمنعُ إلا من أُمرتُ بمنعه، فأنا مطيعٌ لله في إعطائي ومنعي، فهو يقسم الصدقة والفيء والغنائم كما يقسم المواريث بين أهلها؛ لأن الله أمره بهذه القسمة.

ولهذا كان المال حيث أضيف إلى الله ورسوله فالمراد به ما يجب أن يُصرَف في طاعة الله ورسوله، ليس المراد به أنه مِلْكٌ للرسول كما ظنه طائفةٌ من الفقهاء، ولا المراد به كونه مملوكًا لله خلقًا وقدرًا؛ فإن جميع الأموال بهذه المثابة.

وهذا كقوله: ﴿قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:١]. وقوله: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [الأنفال:٤١] الآية. وقوله: ﴿وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الحشر:٦-٧] الآية. فذكر في الفيء ما ذكر في الخمس؛ فظن طائفةٌ من الفقهاء أن الإضافة إلى الرسول تقتضي أنه يملكه كما يملكُ الناسُ أملاكَهم.

ثم قال بعضهم : إن غنائم بدرٍ كانت مِلكًا للرسول.

وقال بعضهم: إن الفيء وأربعة أخماسه كان ملكًا للرسول.

وقال بعضهم: إن الرسول إنما كان يستحق من الخُمس خُمسَه.

وقال بعض هؤلاء: وكذلك كان يستحقُّ من خُمس الفَيء خمُسه.

وهذه الأقوال توجد في كلام طوائف من أصحاب الشافعي وأحمد وأبي حنيفة وغيرهم، وهذا غلطٌ من وجوهٍ:

منها: أن الرسول ﷺ لـم يكن يملك هذه الأموال كما يملك الناس أموالهم، ولا كما يتصرف الملوك في مُلكهم، فإن هؤلاء وهؤلاء لهم أن يصرفوا أموالهم في المباحات، فإما أن يكون مالكًا له فيصرفه في أغراضه الخاصة وإما أن يكون ملكًا له فيصرفه في مصلحة

ملكه، وهذه حال النبي الملك كداود وسليمان.

قال تعالى: ﴿فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [ص :٣٩]؛ أي: أعط مَن شئتَ، واحرم من شئتَ، لا حسابَ عليك، ونبينا كان عبدًا رسولًا لا يُعطي إلا مَن أمر بإعطائه ولا يمنع إلا من أمر بمنعه، فلم يكن يصرفُ الأموال إلا في عبادة الله وطاعةٍ له.

ومنها: أن النبي لا يورِّث، ولو كان ملكًا فإن الأنبياء لا يورِّثون، فإذا كان ملوك الأنبياء لـم يكونوا مُلاكًا كما يملك الناسُ أموالهم، فكيف يكون صفوةُ الرسل الذي هو عبدٌ رسولٌ مالكًا؟!

ومنها: أن النبي ﷺ كان ينفقُ على نفسه وعياله قدرَ الحاجة، ويصرف سائر المال في طاعة الله لا يستفضله، وليست هذه حال الملاك؛ بل المال الذي يتصرف فيه كله هو مال الله ورسوله؛ بمعنى: أن الله أمر رسوله أن يصرف ذلك المال في طاعته، فتجب طاعته في قسمه كما تجب طاعته في سائر ما يأمر به؛ فإنه من يطع الرسول فقد أطاع الله؛ وهو في ذلك مبلغٌ عن الله.

والأموال التي كان يقسمها النبي ﷺ على وجهين:

منها: ما تعيَّن مستحقه ومصرفه كالمواريث.

ومنها: ما يحتاج إلى اجتهاده ونظره ورأيه، فإن ما أمر الله به منه ما هو محدودٌ بالشرع: كالصلوات الخمس، وطواف الأسبوع بالبيت، ومنه ما يرجع في قدره إلى اجتهاد المأمور، فيزيده وينقصه بحسب المصلحة التي يحبها الله.

فمن هذا ما اتفق عليه الناس، ومنه ما تنازعوا فيه: كتنازع الفقهاء فيما يجب للزوجات من النفقات: هل هي مقدَّرةٌ بالشرع أم يرجع فيها إلى العرف فتختلف في قدرها وصفتها باختلاف أحوال الناس؟

وجمهور الفقهاء على القول الثاني، وهو الصواب؛ لقول النبي ﷺ لهند: «**خُذي ما يكفيكِ وولدَك بالمعرُوف**».

وقال أيضًا في خُطبته المعروفة: «للنسَاء كسوتهن ونفقتهن بالمعروف».

وكذلك تنازعوا أيضًا فيما يجب من الكفارات: هل هو مُقدَّرٌ بالشرع أو بالعُرف؟

فما أضيفَ إلى الله والرسل من الأموال كان المرجعُ في قسمته إلى أمر النبي ﷺ بخلاف ما سُمِّي مُستحقوه كالمواريث.

ولهذا قال النبي ﷺ عام حُنين: «ليسَ لي مما أفَاءَ الله عَليكم إلا الخمس، والخمس مردودٌ عَليكم»[1]؛ أي: ليس له بحكم القسم الذي يرجع فيه إلى اجتهاده ونظره الخاص إلا الخمس؛ ولهذا قال: «وهو مردودٌ عليكم»؛ بخلاف أربعة أخماس الغنيمة فإنه لمن شهد الوقعة.

ولهذا كانت الغنائم يقسمها الأمراء بين الغانمين، والخمس يرفع إلى الخلفاء الراشدين المهديين الذين خلفوا رسول الله ﷺ في أمته فيقسمونها بأمرهم، فأما أربعة الأخماس فإنما يرجعون فيها ليُعلم حكمُ الله ورسوله كما يستفتي المستفتي وكما كانوا في الحدود؛ لمعرفة الأمر الشرعي.

والنبي ﷺ أعطى المؤلفة قلوبهم من غنائم حنين ما أعطاهم؛ فقيل: إن ذلك كان من الخمس؛ وقيل: إنه كان من أصل الغنيمة؛ وعلى هذا القول فهو فعل ذلك لطيب نفوس المؤمنين بذلك؛ ولهذا أجاب من عَتَب منَ الأنصَار بما أزَال عَتَبه وأراد تعويضَهُم عن ذلك.

ومن الناس من يقول: الغنيمةُ قبل القسمة لم يملكها الغانمون؛ وإن للإمام أن يتصرف فيها باجتهاده كما هو مذكورٌ في غير هذا الموضع.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه النسائي (٤١٣٨)، وأحمد (٢٢٢١١) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه.
وأخرجه أبو داود (٢٦٩٤)، والنسائي (٤١٣٩) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.
وأخرجه أبو داود (٢٧٥٥) من حديث عمرو بن عبسة رضي الله عنه.
وصححه الألباني في إرواء الغليل (١٢٤٠)، وانظر تخريجه بتمامه هناك.

فإن المقصود هنا: بيانُ حال العبد المحض لله الذي يعبدُه ويستعينُه فيعمل له ويستعينه ويحقق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ توحيد الإلهية وتوحيد الربوبية.

وإن كانت الإلهية تتضمن الربوبية؛ والربوبية تستلزم الإلهية؛ فإن أحدهما إذا تضمن الآخر عند الانفراد لم يمنع أن يختص بمعناه عند الاقتران، كما في قوله: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَٰهِ النَّاسِ﴾ [الناس:١-٣]. وفي قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فجمع بين الاسمين: اسم الإله واسم الرب.

فإن «الإله»: هو المعبود الذي يستحقُّ أن يُعبد. و«الرب»: هو الذي يربي عبده فيدبِّره.

ولهذا كانت العبادة متعلقةً باسمه «الله»، والسؤال متعلقًا باسمه «الرب» ؛ فإن العبادة هي الغاية التي لها خلق الخلق، والإلهية هي الغاية؛ والربوبية تتضمن خلق الخلق وإنشاءهم، فهو متضمنٌ ابتداء حالهم؛ والمصلِّي إذا قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فبدأ بالمقصود الذي هو الغاية، على الوسيلة التي هي البداية؛ فالعبادة غايةٌ مقصودةٌ؛ والاستعانة وسيلةٌ إليها؛ تلك حكمةٌ وهذا سببٌ؛ والفرق بين العلة الغائية والعلة الفاعلية معروفٌ.

ولهذا يقال: أولُ الفكرة آخر العمل، وأول البُغية آخر الدرك.

فالعلة الغائية متقدِّمةٌ في التصور والإرادة، وهي متأخرةٌ في الوجود.

فالمؤمن يقصد عبادة الله ابتداءً وهو يعلم أن ذلك لا يحصل إلا بإعانته، فيقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. ولما كانت العبادة متعلقةً باسم الله تعالى؛ جاءت الأذكار المشروعة بهذا الاسم، مثل كلمات الأذان : الله أكبر الله أكبر. ومثل الشهادتين: أشهد أن لا إله إلا الله أشهد أن محمدًا رسول الله. ومثل التشهد: التحيات لله. ومثل التسبيح والتحميد والتهليل والتكبير: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر.

وأما السؤال فكثيرًا ما يجيء باسم الرب؛ كقول آدم وحواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا

وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣]. وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ﴾ [هود:٤٧]. وقول موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي ﴾ [القصص:١٦]. وقول الخليل: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ﴾ [إبراهيم:٣٧] الآية. وقوله مع إسماعيل: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ [البقرة:١٢٧]. وكذلك قول الذين قالوا: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾ [البقرة:٢٠١]. ومثل هذا كثيرٌ.

وقد نُقل عن مالك أنه قال: أكره للرجل أن يقول في دعائه : يا سيدي يا سيدي يا حنَّان يا حنَّان؛ ولكن يدعو بما دعت به الأنبياء: ربَّنا ربَّنا. نقله عنه العُتبي في «العُتبية».

وقال تعالى عن أولي الألباب: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عمران:١٩١] الآيات.

فإذا سبق إلى قلب العبد قصد السؤال ناسب أن يسأله باسمه الرب، وإن سأله باسمه «الله» لتضمنه اسم «الرب» كان حسَنًا وأما إذا سبق إلى قلبه قصدُ العبادة فاسم الله أولى بذلك.

إذا بدأ بالثناء ذكر اسم الله، وإذا قصد الدعاء دعا باسم الرب، ولهذا قال يونس: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [الأنبياء:٨٧]. وقال آدم: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [الأعراف:٢٣].

فإن يونس عليه السلام ذهب مُغاضبًا.

وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ﴾ [القلم:٤٨]. وقال تعالى: ﴿ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات:١٤٢]. ففعَل ما يُلامُ عليه؛ فكان المناسبُ لحاله أن يبدأ بالثناء على ربه، والاعتراف بأنه لا إله إلا هو، فهو الذي يستحق أن يُعبد دون غيره، فلا يُطاع الهوى؛ فإن اتباع الهوى يُضعفُ عبادة الله وحده.

وقد رُوي أن يونس عليه السلام ندم على ارتفاع العذاب عن قومه بعد أن أظلهم، وخاف أن ينسبوه إلى الكذب فغاضب، وفعل ما اقتضى الكلام الذي ذكره الله تعالى.

وأن يقال: «لا إله إلا أنت» وهذا الكلام يتضمن براءة ما سوى الله من الإلهية، سواءٌ صدر ذلك عن هوى النفس أو طاعة الخلق أو غير ذلك.

ولهذا قال: «سبحانك إني كنت من الظالمين».

والعبد يقول مثل هذا الكلام فيما يظنه وهو غير مطابقٍ، وفيما يريده وهو غير حسنٍ.

وأما آدم عليه السلام فإنه اعترف أولًا بذنبه فقال: ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ ولم يكن عند آدم من ينازعه الإرادة لما أمر الله به مما يزاحم الإلهية؛ بل ظن صدق الشيطان الذي ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝٢١ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف:٢١-٢٢]. فالشيطان غرَّهما، وأظهر نُصحهُما، فكانا في قَبُول غروره وما أظهر من نصحه حالهما مناسبًا لقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ لِمَا حصل من التفريط لا لأجل هوًى وحظ يزاحم الإلهية، وكانا محتاجين إلى أن يربيهما ربوبيةً تكمل علمهما وقصدهما؛ حتى لا يغترا بمثل ذلك، فهما يشهدان حاجتهما إلى الله ربهما الذي لا يقضي حاجتهما غيره، وذو النون شهد ما حصل من التقصير في حق الإلهية بما حصل من المغاضبة وكراهة إنجاء أولئك، ففي ذلك من المعارضة في الفعل لحب شيءٍ آخر ما يوجب تجريد محبته لله وتألهه له وأن يقول: «لا إله إلا أنت».

فإن قول العبد: «لا إله إلا أنت» يمحو أن يتخذ إلهه هواه.

وقد رُوي: «**مَا تحت أديم السَّماء إلهٌ يُعبد أعظمُ عند الله من هوًى مُتبعٍ**»[1].

---

(١) حديث موضوع: أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٢)، والطبراني في المعجم الكبير (٨/ ١٠٣)، وأبو نعيم في الحلية (٦/ ١١٨) من طريق عيسى بن إبراهيم، عن الحسن بن دينار، عن الخصيب بن جحدر، عن راشد بن سعد، عن أبي أمامة رضي الله عنه.

=

فكمَّل يونس -صلوات الله عليه- تحقيق إلهيته لله، ومحو الهوى الذي يتخذ إلهًا من دونه، فلم يبق له -صلوات الله عليه وسلامه- عند تحقيق قوله: «لا إله إلا أنت» إرادةٌ تُزَاحِمُ إلَـهِـيَّـةَ الحقِّ؛ بل كان مخلصًا لله الدين؛ إذ كان من أفضل عباد الله المخلصين.

وأيضًا فمثل هذه الحال تَعرض لمن تَعرضُ له؛ فيبقى فيه نوع مغاضبةٍ للقَدَر، ومعارضةٍ له في خلقه وأمره، ووساوس في حكمته ورحمته، فيحتاج العبد أن ينفي عنه شيئين: الآراء الفاسدة، والأهواء الفاسدة؛ فيعلم أن الحكمة والعدل فيما اقتضاه علمه وحكمته، لا فيما اقتضاه علمُ العبد وحكمته، ويكون هواهُ تبعًا لما أمر الله به؛ فلا يكون له مع أمر الله وحكمه هوًى يخالف ذلك.

قال الله تعالى: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾ [النساء:٦٥].

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «**والذي نَفسي بيدِه لا يُؤمنُ أحدُكُم حتى يكونَ هَوَاهُ تبعًا لِـمَا جئتُ بهِ**»(١). رواه أبو حَاتمٍ في صحيحه.

وفي الصحيح: «أن عُمر قال له: يا رسول الله، والله لأنتَ أحبُّ إليَّ من نفسي. قال: **الآن يا عمر**»(٢).

=

قال الألباني في ظلال الجنة (٣): «موضوع، إسناده مسلسل بالمتروكين: عيسى بن إبراهيم وهو ابن طهمان الهاشمي، وابن دينار وهو الحسن بن دينار أبو سعيد التميمي، والخصيب وهو ابن جحدر، وهذا والذي قبله كذبهما جماعة ...» اهـ

(١) حديث ضعيف: أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (١/ ٧)، والخطيب في تاريخ بغداد (٤/ ٣٦٨) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

قال الألباني في ظلال الجنة (١٥): «إسناده ضعيف، رجاله ثقات غير نعيم بن حماد، ضعيف لكثرة خطئه، وقد اتهمه بعضهم ...» اهـ

وانظر الكامل في الضعفاء (٧/ ١٦)، وتاريخ بغداد (١٣/ ٣٠٦).

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٦٣٢).

وفي الصحيح عنه ﷺ أنه قال: «لا يُؤمنُ أحدُكُم حتى أكونَ أحبَّ إليه من ولَده ووالده والنَّاس أجمعين»(١).

وقال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ﴾ [التوبة: ٢٤].

فإذا كان الإيمان لا يحصلُ حتى يحكِّمَ العبدُ رسولَهُ ويسلم له، ويكون هواه تبعًا لما جاء به، ويكون الرسول والجهاد في سبيله مقدَّمًا على حُبِّ الإنسان نفسَه ومالَه وأهلَه، فكيف في تحكيمه الله تعالى والتسليم له، فمَن رأى قومًا يستحقون العذاب في ظنه وقد غفر الله لهم ورحمهم وكره هو ذلك، فهذا إما أن يكون عن إرادةٍ تخالف حكم الله، وإما عن ظن يخالف علم الله، والله عليمٌ حكيمٌ.

وإذا علمتَ أنه عليمٌ وأنه حكيمٌ لم يبقَ لكراهية ما فعله وجهٌ، وهذا يكون فيما أمر به وفيما خلقه ولم يأمرنا أن نكرهه ونغضب عليه.

فأما ما أمرنا بكراهته من الموجودات: كالكفر والفسوق والعصيان؛ فعلينا أن نطيعه في أمره، بخلاف توبته على عباده وإنجائه إياهم من العذاب، فإن هذا من مفعولاته التي لم يأمرنا أن نكرهها؛ بل هي مما يحبها، فإنه يحب التوابين ويحب المتطهرين.

فكراهة هذا من نوع اتباع الإرادة المزاحمة للإلهية، فعلى صاحبها أن يحقق توحيد الإلهية فيقول: لا إله إلا أنت.

فعلينا أن نحب ما يحب ونرضى ما يرضى ونأمر بما يأمر وننهى عما ينهى.

فإذا كان «يحب التوابين و يحب المتطهرين» فعلينا أن نحبهم؛ ولا نُؤله مُراداتنا المخالفة لمحَابِّه.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٥)، ومسلم (٤٤) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

والكلام في هذا المقام مبنيٌّ على أصلٍ: وهو أن الأنبياء -صلوات الله عليهم- معصومون فيما يخبرون به عن الله سبحانه، وفي تبليغ رسالاته باتفاق الأمة، ولهذا وجب الإيمان بكل ما أوتوه، كما قال تعالى: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة:١٣٦-١٣٧]. وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة:١٧٧]. وقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة:٢٨٥].

بخلاف غير الأنبياء فإنهم ليسوا معصومين كما عُصم الأنبياء، ولو كانوا أولياء لله، ولهذا مَن سبَّ نبيًّا من الأنبياء قُتل باتفاق الفقهاء، ومَن سبَّ غيرهم لم يقتل.

وهذه العصمة الثابتة للأنبياء هي التي يحصل بها مقصود النبوة والرسالة؛ فإن «النبي» هو المنبِئُ عن الله، و«الرسول» هو الذي أرسله الله تعالى، وكل رسولٍ نبي وليس كل نبي رسولًا، والعصمة فيما يبلغونه عن الله ثابتةٌ فلا يستقر في ذلك خطأٌ باتفاق المسلمين.

ولكن هل يصدر ما يستدركه الله فينسخ ما يُلقي الشيطان ويحكم الله آياته؟

هذا فيه قولان، والمأثور عن السلف يوافق القرآن بذلك.

والذين منعوا ذلك من المتأخرين طعنوا فيما ينقل من الزيادة في سورة النجم بقوله: «**تلكَ الغرانيقُ العُلى، وإن شفاعتهن لتُرتجى**»[1]. وقالوا: إن هذا لم يثبت، ومن علم أنه ثبت: قال هذا ألقاه الشيطان في مسامعهم ولم يلفظ به الرسول ﷺ؛ ولكن السؤال واردٌ على هذا التقدير أيضًا.

---

(١) حديث باطل: انظر في تخريجه بتمامه مع فوائد جمة كتاب الإمام الألباني «نصب المجانيق لنسف قصة الغرانيق».

وقالوا في قوله: ﴿إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ﴾ [الحج:٥٢] هو حديث النفس.

وأما الذين قرروا ما نقل عن السلف فقالوا: هذا منقولٌ نقلًا ثابتًا لا يمكن القدح فيه، والقرآن يدل عليه بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [الحج:٥٢-٥٤].

فقالوا: الآثار في تفسير هذه الآية معروفةٌ ثابتةٌ في كتب التفسير والحديث والقرآن يوافق ذلك، فإن نسخ الله لِـمَا يُلقي الشيطان وإحكامه آياته إنما يكون لرفع ما وقع في آياته وتمييز الحق من الباطل حتى لا تختلط آياته بغيرها، وجعل ما ألقى الشيطان فتنةً للذين في قلوبهم مرضٌ والقاسية قلوبهم، إنما يكون إذا كان ذلك ظاهرًا يسمعه الناس لا باطنًا في النفس، والفتنة التي تحصل بهذا النوع من النسخ من جنس الفتنة التي تحصل بالنوع الآخر من النسخ.

وهذا النوع أدلُّ على صدق الرسول ﷺ وبُعده عن الهوى من ذلك النوع؛ فإنه إذا كان يأمر بأمر ثم يأمر بخلافه وكلاهما من عند الله وهو مُصدَّقٌ في ذلك؛ فإذا قال عن نفسه: إن الثاني هو الذي من عند الله وهو الناسخ، وإن ذلك المرفوع الذي نسخه الله ليس كذلك؛ كان أدلَّ على اعتماده للصدق وقوله الحق.

وهذا كما قالت عائشة رضي الله عنها: «لو كان محمدٌ كاتمًا شيئًا من الوحي لكتم هذه الآية: ﴿وَتُخۡفِي فِي نَفۡسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبۡدِيهِ وَتَخۡشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَىٰهُۖ﴾ [الأحزاب:٣٧]»[1].

---

(١) أثر صحيح: أخرجه مسلم (١٧٧) مطولًا.

ألا ترى أن الذي يعظِّم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله ولو كان خطأً، فبيان الرسولﷺ أن الله أحكم آياته ونسخ ما ألقاه الشيطان هو أدل على تحريه للصدق وبراءته من الكذب، وهذا هو المقصود بالرسالة، فإنه الصادق المصدوق -صلى الله عليه وسلم تسليمًا-.

ولهذا كان تكذيبُه كفرًا محضًا بلا ريبٍ، وأما العصمة في غير ما يتعلق بتبليغ الرسالة، فللناس فيه نزاعٌ هل هو ثابتٌ بالعقل أو بالسمع؟

ومتنازعون في العصمة من الكبائر والصغائر أو من بعضها، أم هل العصمة إنما هي في الإقرار عليها لا في فعلها، أم لا يجب القول بالعصمة إلا في التبليغ فقط؟

وهل تجب العصمة من الكفر والذنوب قبل المبعث أم لا؟

والكلام على هذا مبسوطٌ في غير هذا الموضع، والقول الذي عليه جمهور الناس وهو الموافق للآثار المنقولة عن السلف إثبات العصمة من الإقرار على الذنوب مطلقًا، والرد على من يقول إنه يجوز إقرارهم عليها وحجج القائلين بالعصمة إذا حُرِّرت إنما تدل على هذا القول.

وحجج النفاة لا تدل على وقوع ذنبٍ أقر عليه الأنبياء، فإن القائلين بالعصمة احتجوا بأن التأسي بهم مشروعٌ، وذلك لا يجوز إلا مع تجويز كون الأفعال ذنوبًا، ومعلومٌ أن التأسي بهم إنما هو مشروعٌ فيما أقروا عليه دون ما نَهوا عنه ورجعوا عنه، كما أن الأمر والنهي إنما تجب طاعتهم فيما لم ينسخ منه، فأما ما نسخ من الأمر والنهي فلا يجوز جعله مأمورًا به ولا منهيًّا عنه فضلًا عن وجوب اتباعه والطاعة فيه.

وكذلك ما احتجوا به من أن الذنوب تنافي الكمال، أو أنها ممن عظُمت عليه النعمة أقبح، أو أنها توجب التنفير، أو نحو ذلك من الحجج العقلية، فهذا إنما يكون مع البقاء على ذلك وعدم الرجوع، وإلا فالتوبة النصوح التي يقبلها الله يرفع بها صاحبها إلى أعظم مما كان عليه، كما قال بعض السلف: كان داود عليه السلام بعد التوبة خيرًا منه قبل الخطيئة.

وقال آخر: لو لـم تكن التوبة أحب الأشياء إليه لما ابتلى بالذنب أكرم الخلق عليه.

وقـد ثبت في الصحاح حديث التوبة: «للـه أفـرحُ بتوبةِ عبدِه من رجُـلٍ نزَل منزلًا...»[1] إلخ.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢]. وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان:٧].

وقد ثبت في الصحيح حديث الذي يعرضُ الله صغار ذنوبه ويخبئ عنه كبارها -وهو مشفقٌ من كبارها أن تظهر- فيقول الله له: «إني قَد غفرتُها لك وأبدلتُك مكانَ كلِّ سيئةٍ حسنةً، فيقول: أي ربِّ، إن لي سيئاتٍ لـم أرهَا»[2] إذا رأى تبديل السيئات بالحسنات طلب رؤية الذنوب الكبار التي كان مشفقًا منها أن تظهر، ومعلومٌ أن حاله هذه مع هذا التبديل أعظم من حاله لو لـم تقع السيئات ولا التبديل.

وقال طائفةٌ من السلف -منهم سعيد بن جبير-: «إن العبدَ ليعمل الحسنة فيدخل بها النار، وإن العبد ليعمل السيئة فيدخل بها الجنة؛ يعمل الحسنة فيعجب بها ويفتخر بها حتى تدخله النار، ويعمل السيئة فلا يزال خوفه منها وتوبته منها حتى تدخله الجنة».

وقد قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٧٢-٧٣].

فغاية كل إنسانٍ أن يكون من المؤمنين والمؤمنات الذين تاب الله عليهم؛ وفي الكتاب والسنة الصحيحة والكتب التي أنزلت قبل القرآن مما يوافق هذا القول ما يتعذر إحصاؤه.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٨)، ومسلم (٢٧٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٩٠) من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

والرادُّون لذلك تأوَّلوا ذلك بمثل تأويلات الجهمية والقدرية والدهرية لنصوص «الأسماء والصفات»، ونصوص «القدر»، ونصوص «المعاد»، وهي من جنس تأويلات القرامطة الباطنية التي يُعلم بالاضطرار أنها باطلةٌ، وأنها من باب تحريف الكلم عن مواضعه، وهؤلاء يقصد أحدهم تعظيم الأنبياء فيقع في تكذيبهم، ويريد الإيمان بهم فيقع في الكفر بهم.

ثم إن العصمة المعلومة بدليل الشرع والعقل والإجماع وهي «العصمة في التبليغ» لـم ينتفعوا بها إذ كانوا لا يُقرُّون بموجب ما بلغته الأنبياء، وإنما يُقرُّون بلفظ حرفوا معناه، أو كانوا فيه كالأميين الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، والعصمة التي كانوا ادَّعوها لو كانت ثابتةً لـم ينتفعوا بها ولا حاجة بهم إليها عندهم؛ فإنها متعلقةٌ بغيرهم لا بما أُمروا بالإيمان به؛ فيتكلم أحدهم فيها على الأنبياء بغير سلطانٍ من الله، ويدعُ ما يجب عليه من تصديق الأنبياء وطاعتهم، وهو الذي تحصل به السعادة، وبضده تحصل الشقاوة، قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور:٥٤] الآية.

والله تعالى لـم يذكر في القرآن شيئًا من ذلك عن نبي من الأنبياء إلا مقرونًا بالتوبة والاستغفار؛ كقول آدم وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣]. وقول نوح: ﴿رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [هود:٤٧]. وقول الخليل عليه السلام: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾ [إبراهيم:٤١]. وقوله: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ [الشعراء:٨٢]. وقول موسى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ [الأعراف:١٥٥-١٥٦]. وقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص:١٦]. وقوله: ﴿فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:١٤٣]. وقوله تعالى عن داود: ﴿فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَٰلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ

مَـَٔابٖ﴾ [ص :٢٤-٢٥]. وقوله تعالى عن سليمان: ﴿رَبِّ ٱغۡفِرۡ لِي وَهَبۡ لِي مُلۡكٗا لَّا يَنۢبَغِي لِأَحَدٖ مِّنۢ بَعۡدِيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ﴾ [ص :٣٥].

وأما يوسف الصدِّيق فلم يذكر الله عنه ذنبًا، فلهذا لـم يذكر الله عنه ما يناسب الذنب من الاستغفار؛ بل قال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف:٢٤]. فأخبر أنه صرف عنه السوء والفحشاء، وهذا يدل على أنه لم يصدر منه سوءٌ ولا فحشاء.

وأما قوله: ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ وَهَمَّ بِهَا لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف:٢٤]؛ فالهمُّ: اسم جنسٍ تحته «نوعان»؛ كما قال الإمام أحمد: «الهمُّ همَّان: همُّ خطراتٍ، وهمُّ إصرارٍ».

وقد ثبت في الصحيح عن النبيﷺ : «**أن العبد إذا هم بسيئةٍ لـم تكتب عليه، وإذا تركها لله كتبت له حسنةٌ، وإن عملها كتبت له سيئةٌ واحدةٌ**»[(١)].

وإن تركها من غير أن يتركها لله لـم تكتب له حسنةً ولا تكتب عليه سيئةً، ويوسف ﷺ همَّ همًّا تركه لله، ولذلك صرف الله عنه السوءَ والفحشاء لإخلاصه، وذلك إنما يكون إذا قام المقتضي للذنب، وهو الهمُّ، وعارضه الإخلاص الموجب لانصراف القلب عن الذنب لله.

فيوسف عليه السلام لـم يصدُر منه إلا حسنةٌ يثاب عليها.

وقال تعالى :﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ﴾ [الأعراف:٢٠١]. وأما ما ينقل من أنه حلَّ سراويله، وجلس مجلس الرجل من المرأة،.وأنه رأى صورة يعقوب عاضًا على يده، وأمثال ذلك؛ فكله مما لـم يخبر الله به ولا رسوله، وما لـم يكن كذلك فإنما هو مأخوذٌ عن اليهود الذين هم من أعظم الناس كذبًا على الأنبياء وقدحًا فيهم، وكل من نقله من المسلمين فعنهم نقله؛ لـم ينقل من ذلك

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٧٥٠١)، ومسلم (١٢٨، ١٢٩، ١٣٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
وأخرجه البخاري (٦٤٩١)، ومسلم (١٣١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أحدٌ عن نبينا ﷺ حرفًا واحدًا.

وقوله: ﴿۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ ۚ﴾ [يوسف:٥٣].

فمن كلام امرأة العزيز كما يدل القرآن على ذلك دلالةً بينةً لا يرتاب فيها من تدبر القرآن، حيث قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُ ٱلرَّسُولُ قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَٰوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ ۚ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ ۞ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ ۚ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [يوسف:٥٠-٥٣]. فهذا كله كلام امرأة العزيز، ويوسف إذ ذاك في السجن لم يحضر بعد إلى الملك ولا سمع كلامه ولا رآه؛ ولكن لما ظهرت براءته في غيبته -كما قالت امرأة العزيز: ﴿ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: لم أخنه في حال مغيبه عني، وإن كنتُ في حال شهوده راودته- فحينئذٍ: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف:٥٤].

وقد قال كثيرٌ من المفسرين: إن هذا من كلام يوسف، ومنهم من لم يذكر إلا هذا القول، وهو قولٌ في غاية الفساد ولا دليل عليه؛ بل الأدلة تدل على نقيضه، وقد بُسط الكلام على هذه الأمور في غير هذا الموضع.

والمقصود هنا: أن ما تضمنته «قصة ذي النون» مما يُلام عليه كله مغفورٌ بدَّله الله به حسناتٍ؛ ورفع درجاته، وكان بعد خروجه من بطن الحوت وتوبته أعظم درجةً منه قبل أن يقع ما وقع.

قال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلْحُوتِ إِذْ نَادَىٰ وَهُوَ مَكْظُومٌ ﴿٤٨﴾ لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ لَنُبِذَ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ مَذْمُومٌ ﴿٤٩﴾ فَٱجْتَبَىٰهُ رَبُّهُۥ فَجَعَلَهُۥ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [القلم:٤٨-٥٠].

وهذا بخلاف حال التقام الحوت فإنه قال: ﴿فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الصافات: ١٤٢]. فأخبر أنه في تلك الحال مليمٌ، و«المليم»: الذي فعل ما يُلام عليه، فالملام في تلك الحال لا في حال نبذه بالعراء وهو سقيمٌ، فكانت حاله بعد قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ أرفع من حاله قبل أن يكون ما كان، والاعتبار بكمال النهاية لا بما جرى في البداية، والأعمال بخواتيمها، والله تعالى خلق الإنسان وأخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ثم علمه، فنقله من حال النقص إلى حال الكمال، فلا يجوز أن يعتبر قدر الإنسان بما وقع منه قبل حال الكمال؛ بل الاعتبار بحال كماله.

ويونس عليه السلام وغيره من الأنبياء في حال النهاية حالهم أكمل الأحوال.

ومن هنا غلط من غلط في تفضيل الملائكة على الأنبياء والصالحين، فإنهم اعتبروا كمال الملائكة مع بداية الصالحين ونقصهم، فغلطوا، ولو اعتبروا حال الأنبياء والصالحين بعد دخول الجنان ورضا الرحمن وزوال كل ما فيه نقصٌ وملامٌ وحصول كل ما فيه رحمةٌ وسلامٌ حتى استقر بهم القرار ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد:٢٣-٢٤]. فإذا اعتبرت تلك الحال؛ ظهر فضلها على حال غيرهم من المخلوقين، وإلا فهل يجوز لعاقل أن يعتبر حال أحدهم قبل الكمال في مقام المدح والتفضيل والبراءة من النقائص والعيوب؟!

ولو اعتبر ذلك لاعتبر أحدهم وهو نطفةٌ ثم علقةٌ ثم مضغةٌ ثم حين نُفخت فيه الروح، ثم هو وليدٌ ثم رضيعٌ ثم فطيمٌ، إلى أحوالٍ أُخر؛ فعُلم أن الواحد في هذه الحال لم تقم به صفات الكمال التي يستحق بها كمال المدح والتفضيل، وتفضيله بها على كل صنفٍ وجيلٍ؛ وإنما فضله باعتبار المآل عند حصول الكمال.

وما يظنه بعض الناس أنه من ولد على الإسلام فلم يكفر قط أفضل ممن كان كافرًا فأسلم ليس بصواب؛ بل الاعتبار بالعاقبة، وأيهما كان أتقى لله في عاقبته كان أفضل.

فإنه من المعلوم أن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين آمنوا بالله ورسوله بعد كفرهم هم أفضل ممن ولد على الإسلام من أولادهم وغير أولادهم؛ بل من عرف الشر وذاقه ثم عرف الخير وذاقه فقد تكون معرفته بالخير ومحبته له ومعرفته بالشر وبغضه له أكمل ممن لم يعرف الخير والشر ويذقهما كما ذاقهما ؛ بل من لم يعرف إلا الخير فقد يأتيه الشر فلا يعرف أنه شر؛ فإما أن يقع فيه؛ وإما ألا ينكره كما أنكره الذي عرفه.

ولهذا قال عمر بن الخطاب ﷺ: «إنما تُنقض عُرى الإسلام عروةً عروةً إذا نشَأ في الإسلام من لم يعرف الجاهلية».

وهو كما قال عمر؛ فإن كمال الإسلام هو بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتمام ذلك بالجهاد في سبيل الله، ومن نشأ في المعروف لم يعرف غيره فقد لا يكون عنده من العلم بالمنكر وضرره ما عند من علمه، ولا يكون عنده من الجهاد لأهله ما عند الخبير بهم؛ ولهذا يوجد الخبير بالشر وأسبابه إذا كان حسن القصد عنده من الاحتراز عنه ومنع أهله والجهاد لهم ما ليس عند غيره.

ولهذا كان الصحابة ﷺ أعظم إيمانًا وجهادًا ممن بعدَهم؛ لكمال معرفتهم بالخير والشر، وكمال محبتهم للخير وبغضهم للشر؛ لما علموه من حُسن حال الإسلام والإيمان والعمل الصالح، وقُبح حال الكفر والمعاصي.

ولهذا يوجد مَن ذَاق الفقر والمرض والخوف أحرص على الغنى والصحة والأمن ممن لم يذق ذلك.

ولهذا يُقالُ: والضدُّ يُظهرُ حسنَه الضدُّ.

ويقال: وبضدها تتبين الأشياء.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول: «لست بخبٍّ ولا يخدعُني الخبُّ».

فالقلب السليم المحمود: هو الذي يريد الخير لا الشر، وكمال ذلك بأن يعرف الخير والشر، فأمَّا من لا يعرف الشر فذاك نقصٌ فيه لا يمدح به.

وليس المراد أن كل من ذاق طعم الكفر والمعاصي يكون أعلم بذلك وأكره له ممن لم يذقه مطلقًا؛ فإن هذا ليس بمطرد؛ بل قد يكون الطبيب أعلمَ بالأمراض من المرضى.

والأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- أطباء الأديان؛ فهم أعلم الناس بما يصلح القلوب ويفسدها، وإن كان أحدهم لم يذق من الشر ما ذاقه الناس، ولكن المراد أن من الناس من يحصل له بذوقه الشر من المعرفة به والنفور عنه والمحبة للخير إذا ذاقه ما لا يحصل لبعض الناس، مثل من كان مشركًا أو يهوديًا أو نصرانيًا وقد عرف ما في الكفر من الشبهات والأقوال الفاسدة والظلمة والشر، ثم شرح الله صدره للإسلام وعرَّفه محاسن الإسلام؛ فإنه قد يكون أرغب فيه وأكره للكفر من بعض من لم يعرف حقيقة الكفر والإسلام؛ بل هو مُعرضٌ عن بعض حقيقة هذا وحقيقة هذا، أو مقلدٌ في مدح هذا وذم هذا.

ومثال ذلك: من ذاق طعم الجوع ثم ذاق طعم الشبع بعده، أو ذاق المرض ثم ذاق طعم العافية بعده، أو ذاق الخوف ثم ذاق الأمن بعده؛ فإن محبة هذا ورغبته في العافية والأمن والشبع ونفوره عن الجوع والخوف والمرض أعظم ممن لم يُبتل بذلك ولم يعرف حقيقته.

وكذلك من دخل مع أهل البدع والفجور ثم بيَّن الله له الحق وتاب عليه توبةً نصوحًا ورزقه الجهاد في سبيل الله فقد يكون بيانه لحالهم وهجره لمساويهم وجهاده لهم أعظم من غيره.

قال نعيم بن حمادٍ الخزاعي -وكان شديدًا على الجهمية-: «أنا شديدٌ عليهم ؛ لأني كنت منهم».

وقد قال الله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠]. نزلت هذه الآية في طائفةٍ من الصحابة كان المشركون فتنوهم عن دينهم، ثم تاب الله عليهم فهاجروا إلى الله ورسوله؛

وجاهدوا وصبروا.

وكان عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد ﷺ من أشد الناس على الإسلام، فلما أسلما تقدما على من سبقهما إلى الإسلام؛ وكان بعض من سبقهما دونهما في الإيمان والعمل الصالح بما كان عندهما من كمال الجهاد للكفار والنصر لله ورسوله.

وكان عمر -لكونه أكملَ إيمانًا وإخلاصًا وصدقًا ومعرفةً وفراسةً ونورًا- أبعد عن هوى النفس وأعلى همةً في إقامة دين الله مقدَّمًا على سائر المسلمين غير أبي بكرٍ -رضي الله عنهم أجمعين-.

وهذا وغيره مما يبين أن الاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية.

وما يذكر في الإسرائيليات: «أن الله قال لداود: أما الذنب فقد غفرناه؛ وأما الود فلا يعود»؛ فهذا لو عُرفت صحته لـم يكن شرعًا لنا، وليس لنا أن نبني ديننا على هذا؛ فإن دين محمدٍ ﷺ في التوبة جاء بما لـم يجئ به شرعٌ من قبله؛ ولهذا قال: «**أنا نبيُّ الرَّحمة؛ وأنا نبي التوبة**»[1]، وقد رفع به من الآصار والأغلال ما كان على من قبلنا.

وقد قال تعالى في كتابه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

وأخبر أنه تعالى يفرح بتوبة عبده التائب أعظم من فرح الفاقد لما يحتاج إليه من الطعام والشراب والمركب إذا وجده بعد اليأس.

فإذا كان هذا فرحَ الرب بتوبة التائب وتلك محبته؛ كيف يقال: إنه لا يعود لمودته ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلْوَدُودُ ﴿١٤﴾ ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ ﴿١٥﴾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [البروج:١٤-١٦].

ولكن وده وحبه بحسب ما يتقرب إليه العبد بعد التوبة؛ فإن كان ما يأتي به من محبوبات الحق بعد التوبة أفضل مما كان يأتي به قبل ذلك؛ كانت مودته له بعد التوبة أعظم من مودته له قبل التوبة، وإن كان أنقص كان الأمر أنقص؛ فإن الجزاء من جنس

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٣٥٥) من حديث أبي موسى الأشعري ﷺ.

العمل؛ وما ربك بظلام للعبيد.

وقد ثبت في الصحيح عن النبيﷺ أنه قال: «يقول الله تعالى: مَن عادى لي وليًّا فقد آذنتُه بالحربِ؛ وما تقرَّب إليَّ عبدي بمثل أداء ما افترضتُ عليه، ولا يزالُ عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه، فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذي يسمعُ به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، [فبي يسمع، وبي يبصر، وبي يبطش، وبي يمشي]؛ ولئن سألني لأعطينَّه؛ ولئن استعاذني لأُعيذنَّه، وما ترددتُ عن شيءٍ أنا فاعله ترددي عن قبض نفس عبدي المؤمن؛ يكرهُ الموت وأكرهُ مَساءته، [ولابد له منه]»[1].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٥٠٢) من حديث أبي هريرة ﷺ، وما بين المعقوفين ليس عند البخاري، وانظر: السلسلة الصحيحة (١٦٤٠).

وقد نقل الإمام الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامًا نفيسًا لشيخ الإسلام حول لفظ (التردد) اختصره رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ونصُّه: «قال -رحمه الله تعالى- في «المجموع» (١٨/ ١٢٩-١٣١): هذا حديث شريف، وهو أشرف حديث روي في صفة الأولياء، وقد ردَّ هذا الكلام طائفة، وقالوا: إن الله لا يُوصف بالتردد، فإنما يتردد مَن لا يعلم عواقبَ الأمور، والله أعلم بالعواقب، وربما قال بعضهم: إن الله يعامِل مُعاملة التردد!

والتحقيق: أن كلام رسوله حق وليس أحدٌ أعلم بالله من رسوله، ولا أنصح للأمة، ولا أفصح ولا أحسن بيانًا منه، فإذا كان كذلك كان المتحذلقُ والمنكِرُ عليه من أضل الناس وأجهلهم وأسوئهم أدبًا، بل يجب تأديبه وتعزيره، ويجب أن يُصان كلامُ رسول الله ﷺ عن الظنون الباطلة والاعتقادات الفاسدة، ولكن المتردد منا -وإن كان تردده في الأمر لأجل كونه ما يعلم عاقبة الأمور- (فإنه) لا يكون ما وصف الله به نفسه بمنزلة ما يوصف به الواحد منا، فإن الله ليس كمثله شيء، ثم هذا باطل (على إطلاقه) فإن الواحد يتردد تارة لعدم العلم بالعواقب، وتارة لِمَا في الفعلين من المصالح والمفاسد، فيريد الفعل لِمَا فيه من المصلحة، ويكرهه لِمَا فيه من المفسدة، لا لجهله منه بالشيء الواحد الذي يحب من وجه و يكره من وجه، كما قيل:

الشيبُ كُرهٌ وكُره أن أفارقَهُ ... فاعجَب لشيءٍ على البغضَاءِ محبوبُ

وهذا مثل إرادة المريض لدوائه الكريه، بل جميع ما يريده العبد من الأعمال الصالحة التي تكرهها النفس هو من هذا الباب، وفي الصحيح: «حُفَّت النارُ بالشهوات، وحُفَّت الجنةُ بالمكَاره». وقال تعالى: ﴿كُتِبَ =

ومعلومٌ أن أفضل الأولياء بعد الأنبياء هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار؛ وكانت محبة الرب لهم ومودتُه لهم بعد توبتهم من الكفر والفسوق والعصيان أعظم محبةٍ ومودةٍ، وكلما تقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض أحبهم ووَدَّهم.

وقد قال تعالى: ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ عَادَيْتُم مِّنْهُم مَّوَدَّةً وَٱللَّهُ قَدِيرٌ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الممتحنة:٧]. نزلت في المشركين الذين عادوا الله ورسوله مثل «أهل الأحزاب» كأبي سفيان بن حربٍ، وأبي سفيان بن الحارث، والحارث بن هشامٍ، وسهيل بن عمرٍو، وعكرمة بن أبي جهلٍ، وصفوان بن أمية، وغيرهم، فإنهم بعد معاداتهم لله ورسوله جعل الله بينهم وبين الرسول والمؤمنين مودةً، وكانوا في ذلك متفاضلين وكان عكرمة وسهيلٌ والحارث بن هشامٍ أعظمَ مودةً من أبي سفيان بن حربٍ ونحوه.

وقد ثبت في الصحيح: «أن هند امرأة أبي سفيان أم معاوية قالت: والله يا رسول الله

= عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦] الآية. ومن هذا الباب يظهر معنى التردد المذكور في الحديث، فإنه قال: «لا يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه» فإن العبد الذي هذا حاله صار محبوبًا للحق محبًا له، يتقرب إليه أولًا بالفرائض وهو يحبها، ثم اجتهد في النوافل التي يحبها ويحب فاعلها، فأتى بكل ما يقدر عليه من محبوب الحق؛ فأحبه الحق لفعل محبوبه من الجانبين بقصد اتفاق الإرادة، بحيث يحب ما يحبه محبوبه، ويكره ما يكره محبوبه، والرب يكره أن يسوء عبده ومحبوبه؛ فلزم من هذا أن يكره الموت ليزداد من محابِّ محبوبه، والله سبحانه قد قضى بالموت، فكلُّ ما قضى به فهو يريده ولابد منه، فالرب مريد لموته لما سبق به قضاؤه، وهو مع ذلك كاره لمساءة عبده، وهي المساءة التي تحصل له بالموت، فصار الموت مرادًا للحق من وجه مكروهًا له من وجه، وهذا حقيقة التردد، وهو أن يكون الشيء الواحد مرادًا من وجه مكروهًا من وجه، وإن كان لابد من ترجيح أحد الجانبين؛ كما ترجح إرادة الموت، لكن مع وجود كراهة مساءة عبده، وليس إرادته لموت المؤمن الذي يحبه ويكره مساءته كإرادته لموت الكافر الذي يبغضه ويريد مساءته».

وقال في مكان آخر (١٠/ ٥٨ - ٥٩): «فبين سبحانه أنه يتردد؛ لأن التردد تعارض إرادتين، فهو سبحانه يحب ما يحب عبده، و يكره ما يكرهه، وهو يكره الموت، فهو يكرهه كما قال: «وأنا أكره مساءته» وهو سبحانه قد قضى بالموت فهو يريد أن يموت، فسمَّى ذلك ترددًا، ثم بين أنه لابد من وقوع ذلك».

ما كان على وجه الأرض أهل خباءٍ أحب إلي أن يذلوا من أهل خبائك، وقد أصبحتُ وما على وجه الأرض أهل خباءٍ أحب إلي أن يعزُّوا من أهل خبائك. فذكر النبيﷺ لها نحو ذلك»[1].

ومعلومٌ أن المحبة والمودة التي بين المؤمنين إنما تكون تابعةً لحبهم لله تعالى؛ فإن أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله، فالحب لله من كمال التوحيد؛ والحب مع الله شركٌ.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [البقرة:١٦٥]. فتلك المودَّة التي صارت بين الرسول والمؤمنين وبين الذين عادوهم من المشركين إنما كانت مودةً لله ومحبةً لله، ومن أحب الله أحبه الله، ومن ودَّ الله ودَّه الله؛ فعلم أن الله أحبهم وودهم بعد التوبة كما أحبوه وودوه، فكيف يقال: إن التائب إنما تحصل له المغفرة دون المودة؟!

وإن قال قائلٌ: أولئك كانوا كفارًا لم يعرفوا أن ما فعلوه محرمٌ ؛ بل كانوا جهالًا، بخلاف مَن علم أن الفعل محرمٌ وأتاه.

قيل: الجواب من وجهين:

أحدهما: أنه ليس الأمر كذلك، بل كان كثيرٌ من الكفار يعلمون أن محمدًا رسول الله ويعادونه حسدًا وكبرًا، وأبو سفيان قد سمع من أخبار نبوة النبيﷺ ما لم يسمع غيره، كما سمع من أمية بن أبي الصلت وما سمعه من هرقل ملك الروم، وقد أخبر عن نفسه أنه لم يزل موقنًا أن أمر النبيﷺ سيظهر حتى أدخل الله عليه الإسلام وهو كارهٌ له، وقد سمع منه عام اليرموك وغيره ما دلَّ على حسن إسلامه ومحبته لله ورسوله بعد تلك العداوة العظيمة.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٧١٦١)، ومسلم (١٧١٤) من حديث عائشة رضي الله عنها.

وقد قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ ۗ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠]. فإذا كان الله يبدل سيئاتهم حسناتٍ فالحسنات توجب مودة الله لهم.

وتبديل السيئات حسناتٍ ليس مختصًّا بمن كان كافرًا، وقد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء:١٧].

قال أبو العالية: سألت أصحاب رسول الله ﷺ عن هذه الآية فقالوا لي: كل من عصى الله فهو جاهلٌ، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريبٍ.

الوجه الثاني: أن ما ذكر من الفرق بين تائبٍ وتائبٍ في محبة الله تعالى للتائبين فرقٌ لا أصل له، بل الكتاب والسنة يدل على أن الله يحب التوابين، ويفرح بتوبة التائبين سواءٌ كانوا عالمين بأن ما أتوه ذنبًا أو لم يكونوا عالمين بذلك.

ومَن علم أن ما أتاه ذنبًا ثم تاب فلابد أن يبدل وصفه المذموم بالمحمود، فإذا كان يبغض الحق فلابد أن يحبه، وإذا كان يحب الباطل فلابد أن يبغضه، فما يأتي به التائب من معرفة الحق ومحبته والعمل به، ومن بغض الباطل واجتنابه هو من الأمور التي يحبها الله تعالى ويرضاها، ومحبة الله كذلك بحسب ما يأتي به العبد من محابه، فكل من كان أعظم فعلًا لمحبوب الحق كان الحق أعظم محبةً له، وانتقاله من مكروه الحق إلى محبوبه مع قوة بغض ما كان عليه من الباطل، وقوة حب ما انتقل إليه من حب الحق؛ فوجب زيادة محبة الحق له ومودته إياه، بل يبدل الله سيئاته حسناتٍ لأنه بدل صفاته المذمومة بالمحمودة فيبدل الله سيئاته حسناتٍ، فإن الجزاء من جنس العمل، وحينئذٍ فإذا كان إتيان التائب بما يحبه الحق أعظم من إتيان غيره كانت محبة الحق له أعظم، وإذا

كان فعله لِـمَا يوده الله منه أعظم من فعله له قبل التوبة كانت مودة الله له بعد التوبة أعظم من مودته له قبل التوبة، فكيف يقال: الود لا يعود.

وبهذا يظهر جواب شبهة من يقول: إن الله لا يبعث نبيًّا إلا من كان معصومًا قبل النبوة، كما يقول ذلك طائفةٌ من الرافضة وغيرهم، وكذلك من قال: إنه لا يبعث نبيًّا إلا من كان مؤمنًا قبل النبوة، فإن هؤلاء توهموا أن الذنوب تكون نقصًا وإن تاب التائب منها، وهذا منشأ غلطهم، فمن ظن أن صاحب الذنوب مع التوبة النصوح يكون ناقصًا فهو غالط غلطًا عظيمًا، فإن الذم والعقاب الذي يلحق أهل الذنوب لا يلحق التائب منه شيءٌ أصلًا، لكن إن قدَّم التوبة لـم يلحقه شيءٌ، وإن أخر التوبة فقد يلحقه ما بين الذنوب والتوبة من الذم والعقاب ما يناسب حاله.

والأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه- كانوا لا يؤخرون التوبة، بل يسارعون إليها، ويسابقون إليها، لا يؤخرون ولا يصرون على الذنب، بل هم معصومون من ذلك، ومن أَخَّرَ ذلك زمنًا قليلًا كَفَّرَ الله ذلك بما يبتليه به كما فعل بذي النون ﷺ هذا على المشهور: أن إلقاءه كان بعد النبوة، وأما من قال إن إلقاءه كان قبل النبوة فلا يحتاج إلى هذا.

والتائب من الكفر والذنوب قد يكون أفضل ممن لـم يقع في الكفر والذنوب، وإذا كان قد يكون أفضل فالأفضل أحق بالنبوة ممن ليس مثله في الفضيلة، وقد أخبر الله عن إخوة يوسف بما أخبر من ذنوبهم وهم الأسباط الذين نبأهم الله تعالى، وقد قال تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ ۘ وَقَالَ إِنِّى مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّىٓ ﴾ [العنكبوت:٢٦]. فآمن لوطٌ لإبراهيم عليه السلام، ثم أرسله الله تعالى إلى قوم لوطٍ.

وقد قال تعالى في قصة شعيبٍ: ﴿ ۞ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ ﴿٨٨﴾ قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ

وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾ [الأعراف:٨٨-٨٩]. وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

وإذا عرف أن الاعتبار بكمال النهاية، وهذا الكمال إنما يحصل بالتوبة والاستغفار، ولابد لكل عبدٍ من التوبة وهي واجبةٌ على الأولين والآخرين، كما قال تعالى: ﴿ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ [الأحزاب:٧٣].

وقد أخبر الله سبحانه بتوبة آدم ونوحٍ ومن بعدهما إلى خاتم المرسلين محمدٍ ﷺ، وآخر ما نزل عليه -أو من آخر ما نزل عليه- قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴿١﴾ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿٢﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ [سورة النصر].

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: «أن النبي ﷺ كان يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي، يتأول القرآن»(١).

وقد أنزل الله عليه قبل ذلك: ﴿ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ [التوبة:١١٧].

وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه كان يقول: «يأيها الناس توبوا إلى ربكم، فوالذي نفسي بيده إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرةً»(٢).

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٤٩٦٧)، ومسلم (٤٨٤) واللفظ له.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، ولفظه: «والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة».

=

وفي صحيح مسلمٍ، عن الأغر المزني، عن النبيﷺ أنه قال: «إنه ليغان على قلبي، وإني لأستغفر الله في اليوم مائة مرةٍ»[١].

وفي السنن عن ابن عمر أنه قال: «كنا نعد لرسول اللهﷺ في المجلس الواحد يقول: رب اغفر لي، وتب علي؛ إنك أنت التواب الغفور، مائة مرةٍ»[٢].

وفي الصحيحين عن أبي موسى عن النبيﷺ أنه كان يقول: «اللهم اغفر لي خطيئتي وجهلي وإسرافي في أمري وما أنت أعلم به مني، اللهم اغفر لي هزلي وجدي وخطئي وعمدي وكل ذلك عندي، اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت وما أسررت وما أعلنت وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيءٍ قديرٌ»[٣].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أنه قال: «يا رسول الله، أرأيت سكوتك بين التكبير والقراءة ماذا تقول؟ قال: أقول: اللهم باعد بيني وبين خطاياي كما باعدت بين المشرق والمغرب، اللهم نقني من خطاياي كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، اللهم اغسلني من خطاياي بالثلج والبرد والماء البارد»[٤].

وفي صحيح مسلمٍ وغيره أنه كان يقول نحو هذا إذا رفع رأسه من الركوع[٥].

وفي صحيح مسلمٍ عن عليٍّ رضي الله عنه، عن النبيﷺ أنه كان يقول في دعاء الاستفتاح:

=

وأخرجه أحمد (١٧٣٩١) من حديث الأغر المزني رضي الله عنه، ولفظه: «يأيها الناس، توبوا إلى ربكم، فإني أتوب إليه في اليوم مائة مرة» وإسناده صحيح.

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢٧٠٢).

(٢) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٣٤) واللفظ له، وابن ماجه (٣٨١٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح غريب».

وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود، وفي صحيح سنن الترمذي.

(٣) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٣٩٨)، ومسلم (٢٧١٩).

(٤) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٧٤٤)، ومسلم (٥٩٨).

(٥) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤٧٦) من حديث عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه.

«اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت، أنت ربي وأنا عبدك، ظلمت نفسي وعملت سوءًا فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، واهدني لأحسن الأخلاق لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عنِّي سيئها لا يصرف عنِّي سيئها إلا أنت»[١].

وفي صحيح مسلمٍ عن النبيﷺ أنه كان يقول في سجوده: «اللهم اغفر لي ذنبي كله دقه وجله، علانيته وسره، أوله وآخره»[٢].

وفي السنن عن عليٍّ: «أن النبيﷺ أتي بدابةٍ ليركبها، وأنه حمد الله وقال: ﴿سُبْحَانَ ٱلَّذِى سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُۥ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ﴾ [الزخرف:١٣-١٤]. ثم كبره وحمده، ثم قال: سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، ثم ضحك وقال: إن الرب يعجب من عبده إذا قال اغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت، يقول: علم عبدي أنه لا يغفر الذنوب إلا أنا»[٣].

وقد قال تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد:١٩]. وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح:١-٢].

وثبت في الصحيحين في حديث الشفاعة: «أن المسيح يقول: اذهبوا إلى محمدٍ عبدٍ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر»[٤].

وفي الصحيح: «أن النبيﷺ كان يقوم حتى تَرِمَ قدماه فيقال له: أتفعل هذا وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! قال: أفلا أكون عبدًا شكورًا»[٥].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٧٧١).

(٢) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٤٨٣).

(٣) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٠٢)، والترمذي (٣٤٤٦)، وأحمد (٧٥٥).

وقال الألباني في تخريج الكلم الطيب (١٧٣): «حسن صحيح».

(٤) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٧٦)، ومسلم (١٩٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٤٨٣٦)، ومسلم (٢٨١٩) من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

ونصوص الكتاب والسنة في هذا الباب كثيرةٌ متظاهرةٌ والآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين وعلماء المسلمين كثيرةٌ.

لكن المنازعون يتأولون هذه النصوص من جنس تأويلات الجهمية والباطنية كما فعل ذلك من صنف في هذا الباب، وتأويلاتهم تبين لمن تدبرها أنها فاسدةٌ من باب تحريف الكلم عن مواضعه، كتأويلهم قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ المتقدم: ذنب آدم، والمتأخر: ذنب أمته، وهذا معلوم البطلان، ويدل على ذلك وجوهٌ:

أحدها: أن آدم قد تاب الله عليه قبل أن ينزل إلى الأرض فضلًا عن عام الحديبية الذي أنزل الله فيه هذه السورة قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه:١٢١-١٢٢]. وقال: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة:٣٧]. وقد ذكر أنه قال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف:٢٣].

والثاني: أن يقال: فآدم عندكم من جملة موارد النزاع ولا يحتاج أن يغفر له ذنبه عند المنازع فإنه نبي أيضًا، ومن قال: إنه لم يصدر من الأنبياء ذنبٌ يقول ذلك عن آدم ومحمدٍ وغيرهما.

الوجه الثالث: أن الله لا يجعل الذنب ذنبًا لمن لم يفعله فإنه هو القائل: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الإسراء:١٥]. فمن الممتنع أن يضاف إلى محمدٍ ﷺ ذنب آدم ﷺ أو أمته أو غيرهما، وقد قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ﴾ [النور:٦٢]. وقال تعالى: ﴿فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء:٨٤]. ولو جاز هذا لجاز أن يضاف إلى محمدٍ ذنوب الأنبياء كلهم ويقال: إن قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ المراد ذنوب الأنبياء وأممهم قبلك، فإنه يوم القيامة يشفع للخلائق كلهم، وهو سيد ولد آدم وقال: «**أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وآدم فمن دونه تحت لوائي يوم**

القيامة، أنا خطيب الأنبياء إذا وفدوا، وإمامهم إذا اجتمعوا»[1]. وحينئذٍ فلا يختص آدم بإضافة ذنبه إلى محمدٍ، بل تجعل ذنوب الأولين والآخرين على قول هؤلاء ذنوبًا له، فإن قال: إن الله لم يغفر ذنوب جميع الأمم، قيل: وهو أيضًا لم يغفر ذنوب جميع أمته.

الوجه الرابع: أنه قد ميَّز بين ذنبه وذنوب المؤمنين بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾، فكيف يكون ذنب المؤمنين ذنبًا له.

الوجه الخامس: أنه ثبت في الصحيح أن هذه الآية لَـمَّا نزلت قال الصحابة: «يا رسول الله، هذا لك فما لنا، فأنزل الله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح:٤]»[2]. فدل ذلك على أن الرسول والمؤمنين علموا أن قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾. مختص به دون أمته.

الوجه السادس: أن الله لم يغفر ذنوب جميع أمته، بل قد ثبت أن من أمته من يعاقب بذنوبه: إما في الدنيا، وإما في الآخرة، وهذا مما تواتر به النقل وأخبر به الصادق المصدوق واتفق عليه سلف الأمة وأئمتها، وشوهد في الدنيا من ذلك ما لا يحصيه إلا الله، وقد

---

(١) حديث ضعيف: أخرجه الترمذي (٣٦١٠)، والدارمي (٤٨) من طريق ليث بن أبي سليم، عن الربيع بن أنس، عن أنس بن مالك ﷺ، ولفظه: «أنا أول الناس خروجًا إذا بعثوا، وأنا خطيبهم إذا وفدوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، لواء الحمد يومئذٍ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر»، وهذا لفظ الترمذي.
وفي إسناده: ليث بن أبي سليم، وهو ضعيف، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع (١٣٠٩).
وفي لفظ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذٍ آدمُ فمن سواه إلا تحت لوائي ..». أخرجه الترمذي (٣٦١٥)، وابن ماجه (٤٣٠٨) من طريق علي بن زيد بن جدعان، عن أبي نضرة، عن أبي سعيد الخدري ﷺ. وعلي بن زيد، ضعيف، كما في التقريب (ص٤٠١).
وأخرج مسلم في صحيحه (٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافعٍ وأول مُشَفَّع».

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٤١٧٢) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفي آخره: «فأنزل الله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الفتح:٥]».

قال الله تعالى: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣].

والاستغفار والتوبة قد يكونان من ترك الأفضل، فمن نقل إلى حالٍ أفضل مما كان عليه قد يتوب من الحال الأول، لكن الذم والوعيد لا يكون إلا على ذنبٍ.

* * *

فصـل

وأما قول السائل: هل الاعتراف بالخطيئة بمجرده مع التوحيد موجبٌ لغفرانها وكشف الكربة الصادرة عنها، أم يحتاج إلى شيءٍ آخر؟

فجوابه:

أن الموجب للغفران مع التوحيد هو التوبة المأمور بها، فإن الشرك لا يغفره الله إلا بتوبة، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:٤٨]. في موضعين من القرآن وما دون الشرك فهو مع التوبة مغفورٌ، وبدون التوبة معلقٌ بالمشيئة، كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر:٥٣].

فهذا في حق التائبين، ولهذا عمم وأطلق، وحتم أنه يغفر الذنوب جميعًا، وقال في تلك الآية: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾. فخص ما دون الشرك وعلقه بالمشيئة، فإذا كان الشرك لا يغفر إلا بتوبة، وأما ما دونه فيغفره الله للتائب، وقد يغفره بدون التوبة لمن يشاء.

فالاعتراف بالخطيئة مع التوحيد إن كان متضمنًا للتوبة أوجب المغفرة، وإذا غفر الذنب زالت عقوبته، فإن المغفرة هي وقاية شر الذنب.

ومن الناس من يقول: الغفر الستر، ويقول: إنما سمي المغفرة والغفار لِمَا فيه من معنى الستر، وتفسير اسم الله الغفار بأنه الستار، وهذا تقصيرٌ في معنى الغفر، فإن المغفرة معناها وقاية شر الذنب بحيث لا يعاقب على الذنب، فمن غفر ذنبه لم يعاقب عليه، وأما مجرد ستره فقد يعاقب عليه في الباطن، ومن عوقب على الذنب باطنًا أو ظاهرًا فلم يغفر له، وإنما يكون غفران الذنب إذا لم يعاقب عليه العقوبة المستحقة بالذنب.

وأما إذا ابتلي مع ذلك بما يكون سببًا في حقه لزيادة أجره، فهذا لا ينافي المغفرة.

وكذلك إذا كان من تمام التوبة أن يأتي بحسنات يفعلها، فإن ما يُشتَرطُ في التوبة من تمام التوبة، وقد يظن الظان أنه تائبٌ ولا يكون تائبًا بل يكون تاركًا، والتارك غير التائب، فإنه قد يعرض عن الذنب لعدم خطوره بباله أو المقتضي لعجزه عنه، أو تنتفي إرادته له بسبب غير ديني، وهذا ليس بتوبة، بل لابد من أن يعتقد أنه سيئةٌ ويكره فعله لنهي الله عنه، ويدعه لله تعالى لا لرغبة مخلوقٍ ولا لرهبة مخلوقٍ، فإن التوبة من أعظم الحسنات.

والحسنات كلها يشترط فيها الإخلاص لله وموافقة أمره، كما قال الفضيل بن عياضٍ في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود:٨]. قال: أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل؛ حتى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة.

وكان عمر بن الخطاب ﷺ يقول في دعائه: «اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا».

وبسط الكلام في التوبة له موضعٌ آخر.

وأما الاعتراف بالذنب على وجه الخضوع لله من غير إقلاعٍ عنه فهذا في نفس الاستغفار المجرد الذي لا توبة معه، وهو كالذي يسأل الله تعالى أن يغفر له الذنب مع كونه لم يتب منه، وهذا يأسٌ من رحمة الله، ولا يقطع بالمغفرة له فإنه داعٍ دعوةً مجردةً، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما مَن داعٍ يدعو بدعوة ليس فيها إثمٌ ولا قطيعة رحمٍ إلا كان بين إحدى ثلاثٍ: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخر له من الجزاء مثلها، وإما أن يصرف عنه من الشر مثلها**. قالوا: يا رسول الله، إذن نكثر. قال: **الله أكثر**»[1].

---

(١) ليس الحديث في الصحيحين أو أحدهما بهذا اللفظ: وإنما أخرجه الترمذي (٣٥٧٣)، وأحمد (٢٢٢٧٩) من طريق محمد بن يوسف الفريابي، عن عبد الرحمن بن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جبير بن

فمثل هذا الدعاء قد تحصل معه المغفرة، وإذا لـم تحصل فلابد أن يحصل معه صرف شر آخر أو حصول خيرٍ آخر، فهو نافعٌ كما ينفع كل دعاءٍ.

وقول من قال من العلماء: الاستغفار مع الإصرار توبة الكذابين، فهذا إذا كان المستغفر يقوله على وجه التوبة أو يدعي أن استغفاره توبةٌ، وأنه تائبٌ بهذا الاستغفار فلا ريب أنه مع الإصرار لا يكون تائبًا، فإن التوبة والإصرار ضدان: الإصرار يضاد التوبة، لكن لا يضاد الاستغفار بدون التوبة.

= نفير: أن عبادة بن الصامت حدثهم: أن رسول الله ﷺ قال: «ما على الأرض مسلمٌ يدعو الله بدعوةٍ إلَّا آتاهُ الله إيَّاها، أو صرف عنه مِن السُّوءِ مثلَهَا، ما لـم يَدْعُ بإثمٍ أو قطيعةِ رَحِمٍ، فقال رجلٌ مِن القومِ: إذن نُكْثِرُ. قال: الله أكثرُ». وهذا لفظ الترمذي، وقال الترمذي: «وهذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ مِن هذا الوجهِ ...».

قلت: عبد الرحمن بن ثوبان، صدوق يخطئ، ورمي بالقدر، وتغير بأخرة، كما في التقريب (ص٣٣٧).

وقال الألباني في صحيح الترغيب (١٦٣١): «حسن صحيح».

وأخرجه الترمذي (٣٩٦٨) بلفظ آخر، من طريق ليث بن أبي سليم، عن زياد، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من رجل يدعو إلا استجيب له، فإما أن يُعجَّل له في الدنيا، وإما أن يُدَّخر له في الآخرة، وإما أن يُكفَّر عنه من ذنوبه بقدر ما دعا، ما لـم يدع بإثم أو قطيعة رحم ...».

قال الترمذي: «هذا حديث غريب من هذا الوجه» اهـ

وفيه: ليث بن أبي سُليم، وهو ضعيف. وزياد، مجهول، قال الذهبي: «زياد الطائي عن أبي هريرة، لا يُعرف ... ليَّن الترمذي حديثه». ميزان الاعتدال (٣/ ١٤٣)، فالحديث ضعيف بهذا الإسناد، وضعفه الألباني في السلسلة الضعيفة (٤٤٨٣).

وأخرج مسلم (٢٧٣٥) من حديث أبي هريرة ﷺ مرفوعًا: «لا يزال يستجاب للعبد ما لـم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لـم يستعجل. قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: يقول: دعوتُ وقد دعوتُ فلم أرَ يُستجب لي، فيستحسرُ عند ذلك ويدعُ الدعاء».

وأخرجه البخاري (٦٣٤٠) مختصرًا بلفظ: «يُستجاب لأحدكم ما لـم يعجل، يقول: دعوت فلم يُستجب لي».

وقول القائل: هل الاعتراف بالذنب المعين يوجب دفع ما حصل بذنوب متعددةٍ أم لابد من استحضار جميع الذنوب؟

فجواب هذا مبني على أصولٍ:

أحدها: أن التوبة تصح من ذنبٍ مع الإصرار على ذنبٍ آخر إذا كان المقتضي للتوبة من أحدهما أقوى من المقتضي للتوبة من الآخر، أو كان المانع من أحدهما أشد، وهذا هو القول المعروف عند السلف والخلف.

وذهب طائفةٌ من أهل الكلام كأبي هاشمٍ إلى أن التوبة لا تصح من قبيحٍ مع الإصرار على الآخر، قالوا: لأن الباعث على التوبة إن لم يكن من خشية الله لم يكن توبةً صحيحةً، والخشية مانعةٌ من جميع الذنوب لا من بعضها، وحكى القاضي أبو يعلى وابن عقيلٍ هذا روايةً عن أحمد؛ لأن المروذي نقل عنه أنه سئل عمن تاب من الفاحشة وقال: لو مرضت لم أعد لكن لا يدع النظر، فقال أحمد: أي توبةٍ هذه؟ قال جرير بن عبد الله: «سألت رسول الله ﷺ عن نظرة الفجأة، فقال: اصرف بصرك»[1].

والمعروف عن أحمد وسائر الأئمة هو القول بصحة التوبة، وأحمد في هذه المسألة إنما أراد أن هذه ليست توبةً عامةً يحصل بسببها من التائبين توبةٌ مطلقًا، لم يرد أن ذنب هذا كذنب المصر على الكبائر، فإن نصوصه المتواترة عنه وأقواله الثابتة تنافي ذلك، وحمل كلام الإمام على ما يصدق بعضه بعضًا أولى من حمله على التناقض لاسيما إذا كان القول الآخر مبتدعًا لم يعرف عن أحدٍ من السلف، وأحمد يقول: إياك أن تتكلم في مسألةٍ ليس لك فيها إمامٌ، وكان في المحنة يقول: كيف أقول ما لم يقل؟ واتباع أحمد للسنة والآثار وقوة رغبته في ذلك، وكراهته لخلافه من الأمور المتواترة عنه يعرفها من يعرف حاله من الخاصة والعامة.

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٢١٥٩)، وأبو داود (٢١٤٨)، والترمذي (٢٧٧٦) من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنه.

وما ذكروه من أن الخشية توجب العموم.

فجوابه: أنه قد يعلم قبح أحد الذنبين دون الآخر، وإنما يتوب مما يعلم قبحه.

وأيضًا: فقد يعلم قبحها ولكن هواه يغلبه في أحدهما دون الآخر فيتوب من هذا دون ذاك، كمن أدى بعض الواجبات دون بعضٍ، فإن ذلك يقبل منه.

ولكن المعتزلة لهم أصلٌ فاسدٌ وافقوا فيه الخوارج في الحكم وإن خالفوهم في الاسم، فقالوا: إن أصحاب الكبائر يخلدون في النار ولا يخرجون منها بشفاعة ولا غيرها، وعندهم يمتنع أن يكون الرجل الواحد ممن يعاقبه الله ثم يثيبه، ولهذا يقولون: بحبوط جميع الحسنات بالكبيرة.

وأما الصحابة وأهل السنة والجماعة فعلى أن أهل الكبائر يخرجون من النار ويشفع فيهم، وأن الكبيرة الواحدة لا تحبط جميع الحسنات، ولكن قد يحبط ما يقابلها عند أكثر أهل السنة، ولا يحبط جميع الحسنات إلا الكفر، كما لا يحبط جميع السيئات إلا التوبة، فصاحب الكبيرة إذا أتى بحسنات يبتغي بها رضا الله أثابه الله على ذلك، وإن كان مستحقًّا للعقوبة على كبيرته.

وكتاب الله ﷻ يُفرِّق بين حكم السارق والزاني وقتال المؤمنين بعضهم بعضًا، وبين حكم الكفار في «الأسماء والأحكام»، والسنة المتواترة عن النبي ﷺ وإجماع الصحابة يدل على ذلك، كما هو مبسوطٌ في غير هذا الموضع.

وعلى هذا تنازع الناس في قوله: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٢٧]. فعلى قول الخوارج والمعتزلة لا تقبل حسنةٌ إلا ممن اتقاه مطلقًا فلم يأت كبيرةً، وعند المرجئة إنما يتقبل ممن اتقى الشرك، فجعلوا أهل الكبائر داخلين في اسم «المتقين»، وعند أهل السنة والجماعة يتقبل العمل ممن اتقى الله فيه فعمله خالصًا لله موافقًا لأمر الله، فمن اتقاه في عملٍ تقبله منه وإن كان عاصيًا في غيره، ومن لم يتقه فيه لم يتقبله منه وإن كان مطيعًا في غيره.

والتوبة من بعض الذنوب دون بعضٍ كفعل بعض الحسنات المأمور بها دون بعضٍ إذا لـم يكن المتروك شرطًا في صحة المفعول كالإيمان المشروط في غيره من الأعمال، كما قال الله تعالى: ﴿ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ [الإسراء:١٩]. وقال تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ﴾ [النحل:٩٧]. وقال: ﴿وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾ [البقرة:٢١٧].

الأصل الثاني: أن من له ذنوبٌ فتاب من بعضها دون بعضٍ فإن التوبة إنما تقتضي مغفرة ما تاب منه، أما ما لـم يتب منه فهو باقٍ فيه على حكم من لـم يتب لا على حكم من تاب، وما علمت في هذا نزاعًا إلا في الكافر إذا أسلم، فإن إسلامه يتضمن التوبة من الكفر فيغفر له بالإسلام الكفر الذي تاب منه، وهل تغفر له الذنوب التي فعلها في حال الكفر ولـم يتب منها في الإسلام؟

هذا فيه قولان معروفان:

أحدهما: يغفر له الجميع؛ لإطلاق قوله ﷺ: «الإسلام يهدم ما كان قبله»[(١)] رواه مسلمٌ. مع قوله تعالى: ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ ﴾ [الأنفال:٣٨].

والقول الثاني: أنه لا يستحق أن يغفر له بالإسلام إلا ما تاب منه، فإذا أسلم وهو مصرٌّ على كبائر دون الكفر فحكمه في ذلك حكم أمثاله من أهل الكبائر، وهذا القول هو الذي تدل عليه الأصول والنصوص، فإن في الصحيحين أن النبي ﷺ: «قال له حكيم بن حزامٍ: يا رسول الله، أنؤاخذ بما عملنا في الجاهلية؟ فقال: **مَن أحسن منكم في الإسلام لـم يؤاخذ بما عمل في الجاهلية، ومن أساء في الإسلام أخذ بالأول والآخر**»[(٢)].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (١٢١) من حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٩٢١)، ومسلم (١٢٠) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فقد دل هذا النص على أنه إنما ترفع المؤاخذة بالأعمال التي فعلت في حال الجاهلية عمن أحسن لا عمن لا يحسن، وإن لم يحسن أخذ بالأول والآخر، ومن لم يتب منها فلم يحسن.

وقوله تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال:٣٨]. يدل على أن المنتهي عن شيءٍ يغفر له ما قد سلف منه، لا يدل على أن المنتهي عن شيءٍ يغفر له ما سلف من غيره؛ وذلك لأن قول القائل لغيره: إن انتهيت غفرت لك ما تقدم، ونحو ذلك يفهم منه عند الإطلاق أنك إن انتهيت عن هذا الأمر غفر لك ما تقدم منه، وإذا انتهيت عن شيءٍ غفر لك ما تقدم منه، كما يفهم مثل ذلك في قوله: «إن تبت» لا يفهم منه أنك بالانتهاء عن ذنبٍ يغفر لك ما تقدم من غيره.

وأما قول النبي ﷺ: «**الإسلام يهدم ما قبله**»[١]. وفي روايةٍ: «**يجب ما كان قبله**»[٢] فهذا قاله لَـمَّا أسلم عمرو بن العاص وطلب أن يغفر له ما تقدم من ذنبه فقال له: «**يا عمرو أما علمت أن الإسلام يهدم ما كان قبله، وأن التوبة تهدم ما كان قبلها، وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها**»[٣]. ومعلومٌ أن التوبة إنما توجب مغفرة ما تاب منه، لا توجب التوبة غفران جميع الذنوب.

الأصل الثالث: أن الإنسان قد يستحضر ذنوبًا فيتوب منها وقد يتوب توبةً مطلقةً لا يستحضر معها ذنوبه، لكن إذا كانت نيته التوبة العامة فهي تتناول كل ما يراه ذنبًا؛ لأن التوبة العامة تتضمن عزمًا عامًّا بفعل المأمور وترك المحظور، وكذلك تتضمن ندمًا عامًّا على كل محظورٍ.

و«**الندم**» سواءٌ قيل: إنه من باب الاعتقادات، أو من باب الإرادات، أو قيل: إنه

---

(١) التخريج قبل السابق نفسه.

(٢) أخرجه بهذا اللفظ: أحمد (١٧٣٢٣، ١٧٣٥٧، ١٧٣٧٢).

(٣) انظر التخريج السابق والذي قبله.

من باب الآلام التي تلحق النفس بسبب فعل ما يضرها، فإذا استشعر القلب أنه فعل ما يضره؛ حصل له معرفةٌ بأن الذي فعله كان من السيئات، وهذا من باب الاعتقادات، وكراهيةٌ لِـمَا كان فعله، وهو من جنس الإرادات، وحصل له أذًى وغم لما كان فعله، وهذا من باب الآلام؛ كالغموم، والأحزان، كما أن الفرح والسرور هو من باب اللذات ليس هو من باب الاعتقادات والإرادات.

ومن قال من المتفلسفة ومن اتبعهم: إن اللذة هي إدراك الملائم من حيث هو ملائمٌ، وأن الألـم هو إدراك المنافر من حيث هو منافرٌ، فقد غلط في ذلك، فإن اللذة والألـم حالان يتعقبان إدراك الملائم والمنافر، فإن الحب لِـمَا يلائمه كالطعام المشتهى مثلًا له ثلاثة أحوالٍ:

أحدها: الحب كالشهوة للطعام.

والثاني: إدراك المحبوب كأكل الطعام.

والثالث: اللذة الحاصلة بذلك، واللذة أمرٌ مغايرٌ للشهوة ولذوق المشتهي، بل هي حاصلةٌ لذوق المشتهي، ليست نفس ذوق المشتهي.

وكذلك «المكروه»؛ كالضرب مثلًا، فإن كراهته شيءٌ، وحصوله شيءٌ آخر، والألـم الحاصل به ثالثٌ.

وكذلك ما للعارفين أهل محبة الله من النعيم والسرور بذلك، فإن حبهم لله شيءٌ، ثم ما يحصل من ذكر المحبوب شيءٌ، ثم اللذة الحاصلة بذلك أمرٌ ثالثٌ، ولا ريب أن الحب مشروطٌ بشعور المحبوب، كما أن الشهوة مشروطةٌ بشعور المشتهي، لكن الشعور المشروط في اللذة غير الشعور المشروط في المحبة، فهذا الثاني يسمى إدراكًا وذوقًا ونيلًا ووجدًا ووصالًا، ونحو ذلك مما يعبر به عن إدراك المحبوب، سواءٌ كان بالباطن أو الظاهر، ثم هذا الذوق يستلزم اللذة واللذة أمرٌ يحسه الحي باطنًا وظاهرًا.

وقد قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا»[١].

وفي الصحيحين عنه ﷺ أنه قال: «ثلاثٌ من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: مَن كان الله ورسوله أحب إليه من سواهما، ومَن كان يحب المرء لا يحبه إلا لله، ومَن كان يكره أن يرجع في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يلقى في النار»[٢].

فبين ﷺ أن ذوق طعم الإيمان لمن رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا، وأن وجد حلاوة الإيمان حاصلٌ لمن كان حبه لله ورسوله أشد من حبه لغيرهما، ومن كان يحب شخصًا لله لا لغيره، ومن كان يكره ضد الإيمان كما يكره أن يلقى في النار؛ فهذا الحب للإيمان، والكراهية للكفر استلزم حلاوة الإيمان كما استلزم الرضى المتقدم ذوق طعم الإيمان وهذا هو اللذة، وليس هو نفس التصديق والمعرفة الحاصلة في القلب ولا نفس الحب الحاصل في القلب، بل هذا نتيجة ذاك وثمرته ولازمٌ له وهي أمورٌ متلازمةٌ، فلا توجد اللذة إلا بحب وذوقٍ، وإلا فمن أحب شيئًا ولم يذق منه شيئًا لم يجد لذةً؛ كالذي يشتهي الطعام ولم يذق منه شيئًا، ولو ذاق ما لا يحبه لم يجد لذةً، كمن ذاق ما لا يريده، فإذا اجتمع حب الشيء وذوقه حصلت اللذة بعد ذلك.

وإن حصل بغضه وذوق البغيض حصل الألم، فالذي يبغض الذنب ولا يفعله لا يندم، والذي لا يبغضه لا يندم على فعله، فإذا فعله وعرف أن هذا مما يبغضه ويضره ندم على فعله إياه، وفي المسند عن ابن مسعودٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «الندم توبةٌ»[٣].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه مسلم (٣٤) من حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٣) حديث صحيح: أخرجه ابن ماجه (٤٢٥٢)، وأحمد (٣٥٥٨)، وابن حبان في صحيحه (٦١٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٧١).

وصححه الألباني في صحيح الجامع (٦٨٠٢)، وفي صحيح الترغيب والترهيب (٣١٤٧).

إذا تبين هذا، فمن تاب توبةً عامةً كانت هذه التوبة مقتضيةً لغفران الذنوب كلها، وإن لـم يستحضر أعيان الذنوب إلا أن يعارض هذا العام معارضٌ يوجب التخصيص، مثل أن يكون بعض الذنوب لو استحضره لـم يتب منه؛ لقوة إرادته إياه أو لاعتقاده أنه حسنٌ ليس بقبيح، فما كان لو استحضره لـم يتب منه لـم يدخل في التوبة، وأما ما كان لو حضر بعينه لكان مما يتوب منه فإن التوبة العامة شاملته.

وأما «التوبة المطلقة»: وهي أن يتوب توبةً مجملةً، ولا تستلزم التوبة من كل ذنبٍ، فهذه لا توجب دخول كل فردٍ من أفراد الذنوب فيها ولا تمنع دخوله كاللفظ المطلق، لكن هذه تصلح أن تكون سببًا لغفران المعين، كما تصلح أن تكون سببًا لغفران الجميع، بخلاف العامة فإنها مقتضيةٌ للغفران العام، كما تناولت الذنوب تناولًا عامًّا.

وكثيرٌ من الناس لا يستحضر عند التوبة إلا بعض المتصفات بالفاحشة أو مقدماتها أو بعض الظلم باللسان أو اليد، وقد يكون ما تركه من المأمور الذي يجب لله عليه في باطنه وظاهره من شعب الإيمان وحقائقه أعظم ضررًا عليه مما فعله من بعض الفواحش، فإن ما أمر الله به من حقائق الإيمان التي بها يصير العبد من المؤمنين حقًّا أعظم نفعًا من نفع ترك بعض الذنوب الظاهرة، كحب الله ورسوله، فإن هذا أعظم الحسنات الفعلية حتى ثبت في الصحيح: «أنه كان على عهد النبي ﷺ رجلٌ يدعى حمارًا، وكان يشرب الخمر، وكان كلما أُتي به إلى النبي ﷺ جلده الحد، فلما كثر ذلك منه أتي به مرةً فأمر بجلده فلعنه رجلٌ، فقال النبي ﷺ: **لا تلعنه، فإنه يحب الله ورسوله**»[(١)].

فنهى عن لعنه مع إصراره على الشرب لكونه يحب الله ورسوله، مع أنه ﷺ لعن في الخمر عشرةً: «لعن الخمر، وعاصرها، ومعتصرها، وشاربها، وساقيها، وحاملها، والمحمولة إليه، وبائعها، ومبتاعها، وآكل ثمنها»[(٢)].

---

(١) حديث صحيح: أخرجه البخاري (٦٧٨٠) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٢) حديث صحيح: أخرجه أبو داود (٣٦٧٤)، وابن ماجه (٣٣٨٠)، وأحمد (٤٧٧٢) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما. وصححه الألباني في إرواء الغليل (٢٣٨٥)، وصححه محققو مسند الإمام أحمد.

ولكن لعن المطلق لا يستلزم لعن المعين الذي قام به ما يمنع لحوق اللعنة له.

وكذلك «التكفير المطلق»، و«الوعيد المطلق»، ولهذا كان الوعيد المطلق في الكتاب والسنة مشروطًا بثبوت شروطٍ وانتفاء موانع، فلا يلحق التائب من الذنب باتفاق المسلمين، ولا يلحق من له حسناتٌ تمحو سيئاته، ولا يلحق المشفوع له والمغفور له، فإن الذنوب تزول عقوبتها التي هي جهنم بأسباب التوبة والحسنات الماحية والمصائب المكفرة -لكنها من عقوبات الدنيا-، وكذلك ما يحصل في البرزخ من الشدة، وكذلك ما يحصل في عرصات القيامة، وتزول أيضًا بدعاء المؤمنين؛ كالصلاة عليه، وشفاعة الشفيع المطاع، كمن يشفع فيه سيد الشفعاء محمدٌ صلَّى الله عليه وسلم تسليمًا.

وحينئذٍ فأي ذنبٍ تاب منه ارتفع موجبه، وما لـم يتب منه فله حكم الذنوب التي لـم يتب منها، فالشدة إذا حصلت بذنوب وتاب من بعضها خفف منه بقدر ما تاب منه، بخلاف ما لـم يتب منه، بخلاف صاحب التوبة العامة.

والناس في غالب أحوالهم لا يتوبون توبةً عامةً مع حاجتهم إلى ذلك، فإن التوبة واجبةٌ على كل عبدٍ في كل حالٍ؛ لأنه دائمًا يظهر له ما فرط فيه من ترك مأمورٍ أو ما اعتدى فيه من فعل محظورٍ فعليه أن يتوب دائمًا، والله أعلم.

وأما قول السائل: ما السبب في أن الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق؟ وما الحيلة في صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله؟

فيقال:

سبب هذا تحقيق التوحيد: «توحيد الربوبية»، و«توحيد الإلهية».

فـ: «**توحيد الربوبية**»: أنه لا خالق إلا الله، فلا يستقل شيءٌ سواه بإحداث أمرٍ من الأمور، بل ما شاء كان وما لـم يشأ لـم يكن، فكل ما سواه إذا قدر سببًا فلابد له من شريكٍ معاونٍ وضد معوقٍ، فإذا طلب مما سواه إحداث أمرٍ من الأمور طلب منه ما لا يستقل به ولا يقدر وحده عليه، حتى ما يطلب من العبد من الأفعال الاختيارية لا يفعلها إلا

بإعانة الله له، كأن يجعله فاعلًا لها بما يخلقه فيه من الإرادة الجازمة ويخلقه له من القدرة التامة، وعند وجود القدرة التامة والإرادة الجازمة يجب وجود المقدور.

فمشيئة الله وحده مستلزمةٌ لكل ما يريده، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وما سواه لا تستلزم إرادته شيئًا، بل ما أراده لا يكون إلا بأمور خارجةٍ عن مقدوره إن لم يعنه الرب بها لم يحصل مراده، ونفس إرادته لا تحصل إلا بمشيئة الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩]. وقال تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ ٱتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴿٢٩﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٣٠﴾ يُدْخِلُ مَن يَشَآءُ فِى رَحْمَتِهِۦ ۚ وَٱلظَّٰلِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٢٩-٣١]. وقال: ﴿فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [المدثر:٥٥-٥٦].

والراجي لمخلوق طالبٌ بقلبه لِمَا يريده من ذلك المخلوق، وذلك المخلوق عاجزٌ عنه، ثم هذا من الشرك الذي لا يغفره الله، فمن كمال نعمته وإحسانه إلى عباده المؤمنين أن يمنع حصول مطالبهم بالشرك حتى يصرف قلوبهم إلى التوحيد، ثم إن وحَّده العبد توحيد الإلهية حصلت له سعادة الدنيا والآخرة.

وإن كان ممن قيل فيه: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [يونس:١٢]. وفي قوله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء:٦٧]. كان ما حصل له من وحدانيته حجةً عليه.

كما احتج سبحانه على المشركين الذين يقرون بأنه خالق كل شيءٍ ثم يشركون ولا يعبدونه وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ

شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴾ [المؤمنون:٨٤-٨٩]. وقال تعالى: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦١]. وهذا قد ذكر في القرآن في غير موضعٍ.

فمن تمام نعمة الله على عباده المؤمنين أن ينزل بهم الشدة والضر وما يلجئهم إلى توحيده، فيدعونه مخلصين له الدين ويرجونه لا يرجون أحدًا سواه، وتتعلق قلوبهم به لا بغيره، فيحصل لهم من التوكل عليه والإنابة إليه، وحلاوة الإيمان وذوق طعمه، والبراءة من الشرك ما هو أعظم نعمةً عليهم من زوال المرض والخوف، أو الجدب، أو حصول اليسر وزوال العسر في المعيشة، فإن ذلك لذاتٌ بدنيةٌ ونعمٌ دنيويةٌ قد يحصل للكافر منها أعظم مما يحصل للمؤمن.

وأما ما يحصل لأهل التوحيد المخلصين لله الدين فأعظم من أن يعبر عن كنهه مقالٌ، أو يستحضر تفصيله بالٌ، ولكل مؤمنٍ من ذلك نصيبٌ بقدر إيمانه، ولهذا قال بعض السلف: يا بن آدم، لقد بورك لك في حاجةٍ أكثرت فيها من قرع باب سيدك، وقال بعض الشيوخ: إنه ليكون لي إلى الله حاجةٌ فأدعوه فيفتح لي من لذيذ معرفته وحلاوة مناجاته ما لا أحب معه أن يعجل قضاء حاجتي خشية أن تنصرف نفسي عن ذلك؛ لأن النفس لا تريد إلا حظها، فإذا قضي انصرفت.

وفي بعض الإسرائيليات: يا بن آدم، البلاء يجمع بيني وبينك، والعافية تجمع بينك وبين نفسك.

وهذا المعنى كثيرٌ، وهو موجودٌ مذوقٌ محسوسٌ بالحس الباطن للمؤمن، وما من مؤمنٍ إلا وقد وجد من ذلك ما يعرف به ما ذكرناه، فإن ذلك من باب الذوق والحس لا يعرفه إلا من كان له ذوقٌ وحس بذلك.

ولفظ «الذوق» وإن كان قد يظن أنه في الأصل مختص بذوق اللسان، فاستعماله في الكتاب والسنة يدل على أنه أعم من ذلك مستعملٌ في الإحساس بالملائم والمنافر، كما

أن لفظ «الإحساس» في عرف الاستعمال عام فيما يحس بالحواس الخمس، بل وبالباطن.

وأما في اللغة فأصله «الرؤية» كما قال: ﴿هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ﴾ [مريم:٩٨].

والمقصود: لفظ «الذوق»، قال تعالى: ﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ [النحل: ١١٢]. فجعل الخوف والجوع مذوقًا، وأضاف إليهما اللباس ليشعر أنه لبس الجائع والخائف فشمله وأحاط به إحاطة اللباس باللابس، بخلاف من كان الألم لا يستوعب مشاعره، بل يختص ببعض المواضع، وقال تعالى: ﴿فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [آل عمران:١٠٦]. وقال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩]. وقال تعالى: ﴿ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ﴾ [القمر:٤٨]. وقال: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا ٱلْمَوْتَ﴾ [الدخان:٥٦]. وقال تعالى: ﴿لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ۝٢٤ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا﴾ [النبأ:٢٤-٢٥]. وقال: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ﴾ [السجدة:٢١].

وقد قال النبي ﷺ: «**ذاق طعم الإيمان: من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد ﷺ نبيًّا**»(١).

فاستعمال لفظ «الذوق» في إدراك الملائم والمنافر كثيرٌ، وقال النبي ﷺ: «**ثلاثٌ من كن فيه وجد حلاوة الإيمان**»(٢)، كما تقدم ذكر الحديث.

فوجود المؤمن حلاوة الإيمان في قلبه، وذوق طعم الإيمان أمرٌ يعرفه من حصل له هذا الوجد.

وهذا الذوق أصحابه فيه يتفاوتون، فالذي يحصل لأهل الإيمان عند تجريد توحيد قلوبهم إلى الله وإقبالهم عليه دون ما سواه بحيث يكونون حنفاء له مخلصين له الدين، لا يحبون شيئًا إلا له، ولا يتوكلون إلا عليه، ولا يوالون إلا فيه، ولا يعادون إلا له، ولا يسألون إلا إياه، ولا يرجون إلا إياه، ولا يخافون إلا إياه، يعبدونه ويستعينون له وبه، بحيث

---

(١) حديث صحيح: تقدم تخريجه (ص٨١).

(٢) حديث صحيح: تقدم تخريجه (ص٨١).

يكونون عند الحق بلا خلقٍ، وعند الخلق بلا هوًى، قد فنيت عنهم إرادة ما سواه بإرادته، ومحبة ما سواه بمحبته، وخوف ما سواه بخوفه، ورجاء ما سواه برجائه، ودعاء ما سواه بدعائه، هو أمرٌ لا يعرفه بالذوق والوجد إلا من له نصيبٌ، وما من مؤمنٍ إلا له منه نصيبٌ.

وهذا هو حقيقة الإسلام الذي بعث الله به الرسل وأنزل به الكتب، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، والله سبحانه أعلم.

الفهـــرس

نص السؤال الموجه لشيخ الإسلام ٥
لفظ الدعاء والدعوة في القرآن يتناول دعاء العبادة ودعاء المسألة ٥
وإذا جُمع بينهما فإنه يُراد بالسائل ٧
لا يخلو الداعي من الرغب والرهب ٧
المراد بقول البعض: لـم أعبدك شوقًا إلى جنتك ولا خوفًا من نارك ونحو ذلك ٨
إنكار بعض أهل الكلام لذة النظر ٨
غلط من زعم أن شهود توحيد الربوبية يكفي عن شهود توحيد الإلهية ٩
قوله: ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ اعتراف بالذنب وهو يتضمن طلب المغفرة ١١
للدعاء صيغتان ١٣
شرح حديث: «اللهمَّ إني ظلمتُ نفسي ظُلمًا كثيرًا» ١٤
معنى قوله: ﴿سُبْحَانَكَ﴾ وعلاقة ذلك بدعوة ذي النون ١٥
قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾، معنى الإله ١٦
الحكمة في قرن التوحيد بالتسبيح، وقرن التكبير بالتهليل ونحو ذلك ١٧
غلط مَن زعم أن الجلال هو الصفات السلبية والإكرام الثبوتية ١٨
شرح حديث: «الكبرياء إزاري، والعظمة ردائي» ٢٠
فصلٌ: في الجواب على قول السائل: لِـمَ كانت موجبة لكشف الضر؟ ٢٢
لا يعلق العبد توكله ورجاءه إلا بالله ٢٢
الاستغناء والاستعفاف ٢٥
تفاوت الناس في الإخلاص في قول: «لا إله إلا الله» ٢٦

معنى قول الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾ ٢٦
الحكمة في قرن الاستغفار بالتوحيد ٢٨
جنس الثناء والعبادة أفضل من جنس السؤال والطلب ٢٩
غلط من ظن أن التوحيد المفروض هو توحيد الربوبية؛ بل المفروض مع ذلك هو
توحيد الإلهية ٣٠
متى تجب طاعة العلماء والمشائخ والأمراء والملوك ٣١
إذا أُفرد الإيمان دخلت فيه الأعمال الباطنة والظاهرة ودخل فيه الإسلام، وإذا
قرن بالإسلام أو بالعمل فرق بينهما ٣٣
الإيمان وإن تضمن التصديق فليس مرادفًا له ٣٤
إذا لم يحب الله ولم يعظمه أو استكبر عن عبادته لم يكن مؤمنًا وإن علم قلبه
ذلك، وغلط الجهمية في هذا ٣٥-٣٦
إذا تحقق القلب بالتصديق والعمل لزم وجود الأفعال الظاهرة ٣٦
أصل العبادة القصد والإرادة وإذا أفردت دخل فيها التوكل ٣٨
الناس في عبادة الله وحده أقسام ٣٩-٤٠
تفسير: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ ٤١-٤٢
الفرق بين العبد الرسول وخلفائه وبين الملوك ٤٢
كل مال أضيف إلى الله ورسوله يجب أن يصرف في طاعة الله ورسوله ٤٣
هل نفقة الزوجة والكفارات مقدرة بالشرع أو بالعرف ٤٤
حكم الغنائم والخمس ٤٥
الإلهية تتضمن الربوبية، والربوبية تستلزم الإلهية ٤٦
عصمة الأنبياء في باب التبليغ دون غيرهم ٥٠

لـم يذكر الله عن نبي ذنبًا إلا مقرونًا بتوبة..... ٥٥
فضل الأنبياء والصالحين على الملائكة باعتبار النهاية ٥٨
غلط من ظن أن مِن ولد على الإسلام أفضل ممن كان كافرًا فأسلم..... ٥٨-٥٩
تفسير قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾..... ٦٩
فصلٌ: في الجواب على قول السائل: هل الاعتراف بالخطيئة بمجرده مع التوحيد
موجب للغفران وكشف الكربة أم يحتاج إلى شيء آخر؟..... ٧٣
حكم أهل الكبائر..... ٧٧
هل تغفر ذنوب الكافر التي فعلها في حال كفره إذا تاب من الكفر؟ ٧٨
هل الندم واللذة والسرور من باب الاعتقادات أو الإرادات أو غير ذلك؟... ٧٩-٨٠
لعن المعين ولعن المطلق، التكفير المطلق والوعيد المطلق ٨٢-٨٣
الجواب على قول السائل: ما السبب في أن الفرج يأتي عند انقطاع الرجاء عن الخلق؟
وما الحيلة في صرف القلب عن التعلق بهم وتعلقه بالله؟..... ٨٣
توحيد الربوبية، وتوحيد الإلهية ٨٣
الفهرس..... ٨٩